وصفُ النَّبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلَّم
دراسة بلاغيَّة مقارنة

د. حمد النيل عثمان عبد السيد عبد القادر
أستاذ البلاغة والنقد المشارك بقسم اللغة العربية، كليَّة العلوم والآداب بالعلا، جامعة طيبة

الملخص
تطوَّرتِ الدِّراساتُ البلاغيّةُ في عصرنا هذا تطوُّرًا تكشَّفَتْ فيه أبعادٌ نقديَّةٌ، وتمايزَتْ فيه أشكالٌ تَحليليَّةٌ متناولةً ظواهرَ لُغويَّةٍ تسْبِرُ أغوارها؛ لتقدِّم للقارئ ما هو مهمٌّ وجديرٌ بالعنايةِ في مجالِ البحث العلميِّ؛ فجاءتْ هذه الدِّراسة بهدف الوقوف على بلاغة الوصف وإظهار جمالياته، تطبيقًا على وصْفِ هند بن أبي هالة للنَّبيِّ ﷺ، ووصفِ أمِّ معبدٍ الخُزاعيَّة والمقارنة بين جماليات الأداءِ الأسلوبيِّ في الجُملِ والعبارات التي وردت في كلِّ وصفٍ. إذ يُعَدُّ هندُ من أشهرِ الوصَّافينَ، وقد تربَّى مع النَّبيِّ ﷺ، أمَّا وصف أم معبدٍ فيُعَدُّ وصفها مِن أبلغِ الأوصاف التي وُصِف بها النبيُّ ﷺ؛ وقد وردتْ هذه الأوصاف في كُتُبِ السِّيرةِ النَّبويّة والشمائل المحمديَّة بروايات وطرقٍ مختلفةٍ، فعَظُمَتْ مكانتها في النفوسِ؛ يَدلُّنا على ذلك ما وجدتْ مِن الإشادةِ والإشارةِ إليها في مجالس العلم، وما كُتِبَ عنها مِن شروح في كتب السيرة النَّبويَّة وغيرها.
وجاءتْ هذه الدراسةِ بعنوانِ: (**وصفِ النَّبيِّ ﷺ**) دراسة بلاغيَّة مقارنة بين وصف هند بن أبي هالة، ووصف أمِّ معبدٍ الخزاعيَّة، ساعيةً لإبراز جماليات التَّركيب وبلاغته في هذين الوصفَين، وكيفَ تمكَّن كلٌّ منهما من استخدامِ الأساليب البلاغيَّة؛ ليُحقِّقَ كلُّ وصفٍ المقصود منه، وسنذكرُ هذين الوصفين -وصف هند بن أبي هالة، ووصف أمِّ معبدٍ- بشرح مفردات كلِّ وصفٍ على حدة، وتحليل تراكيبه؛ للوقوف على جمالياتِ العبارات الواردة فيه وبلاغتها.
وقد نال وصفُ أمِّ معبدٍ شهرةً واسعةً، ووجد إشادةً كبيرةً، واهتمامًا من العلماءِ قديمًا وحديثًا، وكذلكَ وصف هند بن أبي هالة عندما سأله ابنُ أخته الحسن بن علي بن أبي طالبٍ –رضي الله عنهما- فوصف هندُ كلَّ لمحةٍ في حياةِ النَّبيِّ ﷺ. وقد وصفتْ أمُّ معبدٍ النبيَّ ﷺ لزوجها ولم تكن تَعرِفُ أنَّها تصفُ النبيَّ العربيَّ الذي أخرجه قومه، فجاء وصفها صادقًا من غير تكلُّفٍ.
وتعتمد هذه الدراسةُ المنهجَ الوصفيَّ، حيث نحاول من خلاله استخلاص المادة ثمَّ تصنيفها وفقًا لمعايير بلاغيَّة إخباريَّة استند عليها المنهجُ العلميُّ، ثمَّ دراستها في ضوء الشُّروط البلاغيَّة؛ للخروج من رصد هذه المادة بنتائج تُعين على إظهار جمالياتِ الأداءِ الأسلوبيِّ في الجُملِ والعبارات التي وردت في كلِّ وصفٍ على حِدة؛ اعتمادًا على أهمِّ المصادر والمراجع ذات الصلة بموضوع الدِّراسةِ.
وقد اقتضتْ طبيعة البحثِ تقسيمَ مادَّته العلميَّة إلى ثلاثةِ مباحث تسبقها مقدِّمة وتمهيد وتعقبها خاتمة ثمَّ ثبت بأهم المصادر والمراجع. تضمَّنتِ المقدِّمةُ أهداف الدِّراسةِ، وفروضها، والأسئلة التي تسعى الدِّراسة للإجابة عنها، والمنهج المتَّبع فيها. وتناول التَّمهيد: ترجمة موجزةٍ لكلٍّ مِن: هند بن أبي هالة، وأمِّ معبدٍ الخُزاعيَّة، ثُمَّ الحديثِ عن الوصفِ ودلالته اللُّغوية والاصطلاحيَّة، ومكانته في الدِّراسات الأدبيَّة، وجاء المبحث الأول متناولًا وصف هند بن أبي هالة، مع ذكر مناسبة الوصف، وشرحه، وبيان بلاغته. أمَّا المبحث الثاني فاشتمل على وصف أمِّ معبدٍ الخزاعيَّة، مع ذكر مناسبة الوصف، وشرحه، وبيان بلاغته. وجاءتِ الدِّراسة التطبيقيَّة -البلاغية المقارنة بين الوصفين- في المبحث الثالث. وذكرتِ الخاتمة أهمَّ ما توصَّل إليه البحث من نتائج. وذيَّلتُ البحثَ بفهرس للمصادر والمراجع.
الكلمات المفتاحية: أداء، بلاغة؛ جملة؛ عبارة؛ النبي ؛ وصفِ

التَّمهيد:

ترجمة مختصرة لـ(هند بن أبي هالة):

هند بن أبي هالة التَّميميُّ الأسيدي ربيب[١] النَّبيِّ ﷺ أمُّه خديجة بنت خويلد زوج النَّبيِّ ﷺ، وهو خالُ الحسنِ والحسينِ ﷺ، وقد كان هندُ بنُ أبي هالة فصيحًا بليغًا وصَّافا، وصف رسولَ الله ﷺ فأحسن وأتقن، وقد شُرِح وصفُه كثيرًا؛ لما فيه من الفصاحة وفوائد اللُّغة، واختُلِفَ فِي اسم أبي هالة، فقيل: نمّاش بن زرارة، وقيل: نبّاش بن زرارة بن وقدان بن حبيب بن سلامة بن عدي بن حزورة بن أسيد بن عمرو بن تميم حليف بني عبد الدار بن قصي، وقيل: زرارة بن نباش، وقيل: مالك بن نباش بن زرارة، ولكنَّ أكثر أهل النسب ينسبونه على أنّه نبّاش بن زرارة بن وقدان[٢]. وهندُ -كما أشرنا- هو ابنُ السيِّدة خديجةَ (رضي الله عنها) مِن غيرِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فهو ربيب النَّبيِّ ﷺ، وأخو السَّيدة فاطمة الزَّهراء (رضي الله عنها) لأمِّها؛ فهو خال سِبْطَي[٣] رَسولِ الله ﷺ؛ لذا ورد في كتب السيرة والشمائل أنَّ الحَسَنَ بن عليٍّ (رضي الله عنهما) سأل خاله هندَ بنَ أبي هالةَ عن أوصاف النَّبي ﷺ.

ثانيًا: ترجمة مختصرة لـ(لأمِّ معبدٍ الخُزاعيَّة):

أمُّ معبدٍ الخُزاعيَّة صحابِيَّةٌ جليلةٌ اشتُهِرَتْ بكنيتها، واسمها: "عاتِكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعة، وقيل: عاتِكة بنت خالد بن خليف بن منقذ بن ربيعة، وكانت امرأة برزة[٤]، جَلْدَة [أي: قويَّة، وقيل عاقلة]، تحتبي[٥] بفناء الخيمة، ثمَّ تسقى وتطعم، وهي التي نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة، وحديثه معها مشهور، وزوجها أبو مَعبد هو: أكثم بن أبي الجون الخزاعي.."[٦]

لم تكن أمُّ مَعْبَدٍ من النِّساء ذوات الشهرة في الجاهلية، بل كانت امرأة بدوية لا تتعدَّى شهرتُها خيمتَها أو أهلها، وقد هبطت عليها البركة عند نزول النَّبيِّ ﷺ ضيفًا عليها عند هجرته إلى المدينة حتَّى غَدَت بذلك إحدى شهيرات النِّساء في الإسلام.

ثانيًا: الوصف ودلالته اللغويَّة والاصطلاحيَّة

الوصفُ من وسائل التَّعبير التي يُعبِّرُ بها المتكلِّمُ عن صفاتِ وملامح الموصوفِ، جمالهِ أو قُبْحِهِ، جودته أو سوءَه، وعادَةً ما يكونُ الوصفُ بأسلوبٍ فنيٍّ أو بأساليبَ أخرى مختلفة تُستخدم لتقريب

---

[١] الربيب: ابن امرأة الرَّجُل من غيرِهِ. (تهذيب اللُّغة للأزهري، "رب ب"، ١٣٢/١٥)

[٢] انظر ترجمته في: تهذيب الكمال للمزي ٣١٥/٢٠، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير ٦٤١/٤، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ١٥٤٤/٤، والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني ٤٣٦/٦.

[٣] السِّبْط ولَدُ الابْنِ والابْنَةِ، ومنه الحَسَنُ والحسينُ سِبْطا رسول الله ﷺ، والسِّبطُ من اليَهُودِ كالقبيلَةِ من العَرَبِ وهم الذين يرجعون إلى أبٍ واحدٍ، سمّي سِبْطاً؛ ليُفْرَقَ بين ولَد إسماعيلَ ووَلَدِ إسحاق والجمع أسْباطٌ.. (المحكم لابن سيدة، دار الكتب العلميَّة- بيروت، (سبط) ٤٣٩/٨).

[٤] البَرْزَةُ من النساءِ الجليلة التي تظهر للناس ويجلس إليها القوم، ويتحدَّثون عَنْهَا وَهِي مَعَ ذَلِك عاقِلةٌ عَفيفةٌ (تاج العروس، للمرتضى الزبيدي، (برز)، ٢٠/١٥، ولسان العرب، لابن منظور (برز) ٣٠٩/٥).

[٥] تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، على ركبتيها، وتلك جِلْسَةُ الأعراب، وقد يكون من الاحتباء بالثوب وهو الاشتمال به (المحكم، لابن سيدة (حبو) ٢٦/٤).

[٦] ترجمتها في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر ١٨٧٦/٤، وأُسْد الغابة، لابن الأثير، ١٩٨/٧، والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٤٧٦/٨.

الشَّكل إلى ذهنِ المُتَلَقِّي، ويتميَّزُ الوصفُ بقدرته الكبيرة على التعبير عن حالة معينة بِدقة التصوير لإيصال المعاني إلى المتلقِّي بكلّ سهولة، والوصف أنواعٌ كثيرةٌ، منها: **الوصف الظاهري** وهو الذي يأتي خاليًا من أيِّ مشاعرِ أو آراء شخصيَّة، وغالبًا ما يصفُ هذا النَّوعُ الأمكنةَ، أوِ الأشياء الماديَّة، أو مجموعةً مِن النَّاس، ويأتي الوصفُ دقيقًا محددًا ليعطي صورةً حقيقيَّةً ودقيقةً للشيء الموصوف، ومنها: **الوصف العلمي**، وهذا النوعُ قريبٌ إلى حدٍّ ما من الوصف الظاهري، ومنها أيضًا: **الوصفُ الأدبيُّ**، وفيه يتمُّ استخدام أساليب البلاغةِ بكثرة في مختلف الأجناس الأدبيَّة، ويُعدُّ الوصفُ الأدبي أحدُ الأغراض الشعريَّة التي تناولها الشعراءُ في أشعارهم، على الرغم مِن القولِ بأنَّ الشِّعرَ كلُّه من وصْفٌ، فالغزلُ وصفٌ لمحاسنِ المحبوبة، والمدحُ وصف للجوانبِ المشرقةِ في الممدوح، والهجاء وصفٌ لقبائح الشخص المقصود بالهجاءِ أو الجهةِ المقصودة بالهجاء، وهكذا في بقيَّة موضوعات الشعر. وهناك الكثيرُ من الأشعارِ التي يصفُ فيها الشاعر الديارَ وجمالَها والحنينَ إليها، وغير ذلك، أمَّا وصف المحبوبة فهو من الأمور التي أبدع الشُّعراء في وصفها سواءً كان وصفًا حسيًّا أو معنويًّا، ومِن أمثلةِ ذلك ما قاله الخبز أرزي -(نصر بن أحمد بن نصر، ت ٣١٧هـ)- واصفًا جمال محبوبته (بحر المتقارب):

رأيتُ الهلالَ ووجهَ الحبيبِ فكانا هـــلالَينِ عندَ النَّـــظرْ
فلمْ أدرِ منْ حَـــيْرَتِي فِيهما هلالَ الدُّجَى مِن هِلال البَشَرْ
فَلَوْلَا التَّـــوَرُّدُ في الوَجنَتَيْنِ وما رَاعَـني مِنْ سَوادِ الشَّعَـرْ
لَكُنتُ أَظنُّ الهِـلالَ الحَبِيبَ وكنْتُ أظـــنُّ الحبيبَ القمرْ[١]

ومثله قولَ أبي الطيب المتنبِّي (ت ٣٥٤ هـ): الذي وَصَفَ شَعر محبوبته ووجها (بحر الكامل)

نَشَرَتْ ثَلاثَ ذَوائِبٍ من شَـعْرِها في لَيْلَةٍ فَـــــأَرَتْ لَيَالِيَ أَرْبَعَا
واستَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّماءِ بوَجْهِها فأَرَتْنِيَ الْقَمَرَينِ في وقْتٍ مَعَا[٢]

أمَّا **الوصف العام** –وهو أحد أنواع الوصف- فهو ما يوصَفُ به إنسانٌ أو حالةٌ أو شيءٌ معينٌ بشكل عام حتَّى يتَّضِحَ للمتلقي، ومِن هذا النوعُ جاء وصفُ أمِّ معبدٍ التي وصفتْ رسولَ الله ﷺ لأبي معبدٍ، ووصف هندٍ الذي وصف رسول الله ﷺ للحسين بن عليٍّ رضي الله عنهما.

وفرَّق أبو هلال العسكري بين الوصف والصفة من حيثُ إنَّ الوصف مصدر والصفة فعلة، وجعلها "أخصَّ من الوصفِ؛ لأنَّ الوصف اسم للجنسِ يقع على كَثِيرِهِ وقَلِيلِهِ، أمَّا الصفة فَضَرْبٌ من الوصف، مثل: الجِلْسة والمِشْيَة، وهي هيئة الجالس والماشي؛ ولهذا أُجريتِ الصفات على المعاني؛ فقيل: العفاف والحياء من صفات المؤمن، ولا يقال أوصافه.."[٣]، وهذا ما ذَهبَ إليهِ علي الجُرجانيُّ (ت ٨١٦هـ) الذي يرى أنَّ الوصفَ والصفة مصدران، ثمَّ أشار إلى أنَّ المتكلِّمين قد فرقوا بين الوصف والصِّفة، "فقالوا الوصف يقوم بالواصف والصفة تقوم بالموصوف"[٤]

والوَصف الجيِّدُ هو ما تميَّزَ بالدقة في التصوير، والصِّدق والموضوعية في الوصف، فضلًا عن ضرورةِ امتلاك الواصفِ مهارةً في التعبير عن الحالة أو الموقف المراد وصفه، وربطه بأشياء أخرى، مستخدمًا أساليب لغويَّة معينة على ذلك، كالتعجب، والتمني، والمبالغة والمدح أو الذم وغيرها.

---

[١] نهاية الأرَب في فنون الأدب، للنويري (شهاب الدين أحمد)، تحقيق: مفيد قميحة وجماعة، دار الكتب العلمية– بيروت، ٢٠٠٤م، ٣٨/٢.

[٢] ديوان المتنبي، دار بيروت، للطباعة والنشر– بيروت، ١٩٨٣م، ص ١١٧.

[٣] الفروق اللغويَّة لأبي هلال العسكري، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة– القاهرة، ص ٣١.

[٤] التعريفات، لعلي بن محمد الجرجانيّ، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي– بيروت، ١٤٠٥هـ، ص ٣٢٦.

المبحث الأول:

وصف هند ابن أبي هالة: مناسبته، وشرحه

جاء وصف هند للرَّسول ﷺ ردًّا على طلب الحَسَنِ بن عليٍّ ﷺ، قال الحسنُ: "سَأَلْتُ خَالِي هِنْدَ بْنَ أَبِي هَالَةَ التَّمِيمِيَّ -وَكَانَ وَصَّافًا- عَنْ حِلْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا أَشْتَهِي أَنْ يَصِفَ لِي مِنْهَا شَيْئًا أَتَعَلَّقُ بِهِ فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فَخْمًا مُفَخَّمًا** يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، أَطْوَلُ مِنَ الْمَرْبُوعِ، وَأَقْصَرُ مِنَ الْمُشَذَّبِ، عَظِيمُ الْهَامَةِ، رَجِلُ الشَّعْرِ، إِنِ انْفَرَقَتْ عَقِيقَتُهُ فَرَّقَهَا، وَإِلَّا فَلَا يُجَاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ إِذَا هُوَ وَفَّرَهُ، أَزْهَرُ اللَّوْنِ، وَاسِعُ الْجَبِينِ، **أَزَجُّ الْحَوَاجِبِ** سَوَابِغَ **فِي غَيْرِ قَرَنٍ**..."[١]، ثُمَّ سأله بعد ذلك عن مَنْطِق النَّبِيِّ ﷺ، فقال: "قُلْتُ: صِفْ لِي مَنْطِقَهُ ﷺ. قَالَ: كَانَ ﷺ مُتَوَاصِلُ الأَحْزَانِ، دَائِمُ الْفِكْرَةِ، لَيْسَت لَهُ رَاحَةٌ، طَوِيلُ السَّكْتِ [وفي رواية طويلُ السُّكوت[٢]]، لا يَتَكَلَّمُ عَنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، يَفْتَتِحُ الْكَلامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، فَصْلٌ لا فُضُولٌ فيه وَلا تَقْصِيرٌ، لَيْسَ بِالْجَافِي وَلا الْمَهِينِ، يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ وَإِنْ دَقَّتْ، لا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَذُمُّ ذَوَاقًا وَلا يَمْدَحُهُ، وَلا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا وَمَا كَانَ لَهَا، فَإِذَا تُعُدِّيَ الْحَقُّ لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ، لا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلا يَنْتَصِرُ لَهَا، إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلَّبَهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا، يَضْرِبُ بِرَاحَتِهِ الْيُمْنَى بَاطِنَ إِبْهَامِهَا الْيُسْرَى، وَإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرْفَهُ، جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ، يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ"[٣].

إنَّها عباراتٌ تفيضُ بصفاتِ الجَمالِ والجَلالِ والكَمالِ التي تحلَّتْ بها شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ رواها شاهدُ عَيانٍ، فهي لم تُرْوَ عن بُعدٍ بل هي حقائق واقعيَّة رآها وعاصرها هندُ بنُ أبي هالة، والكُلُّ في ذلك الوقت على يقينٍ مِن صِدْقِها، فالنَّبيُّ ﷺ هو الصَّادق الأمينُ، كان (**فَخْمًا مُفَخَّمًا**)، أي: عظيمًا مُعَظَّمًا؛ فالفخامَة تعني: الضخامَةُ، كما تعني العَظَمَةُ، قال ابنُ منظور: "**فَخُم** الرجل فَخامة أي ضَخُم، ورجل **فَخْم** أي عظيم القدر.. والتَّفْخِيم: التَّعظيم، وفَخَّم الكلام: عظَّمه"[٤]، ولم يقصد هندُ بالفخامة في خِلْقة النَّبيِّ ﷺ الضَّخامة في جِسْمِه، وإنَّما الفَخامة في وجهه التي تعني نُبْلُه وامْتِلاؤه مع الجمال والمهابة، و(**مُفَخَّمًا**) اسم مفعولٍ من التَّفْخيم، فهو ﷺ "مُعَظَّمًا مُكَرَّمًا فِي القلوب... مَنْ رآهُ فَجْأةً هَابَه، وَمَنْ خَالَطه عُشْرَةً أَحَبَّهُ.."[٥]، ويمكنُ أنْ يكون المقصود بـ(فَخمًا مُفَخَّمًا): عظيمًا عند الله تعالى، ومُعَظَّمًا عند النّاس.

وقال هندُ في وصفِ مَنطِقِه ﷺ: "كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزانِ، دائمَ الفكرةِ، وليستْ له راحَةٌ، لا يتكلَّمُ في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه.."

لم يكنْ **تواصلُ الأحزانِ بسببِ: خوفٍ أو ضَعْفٍ أو اعتراضٍ على أمرِ اللهِ تعالى، وعدم الرِّضا بقضائه وقَدَرِهِ**، ولكنَّهُ الهمُّ بالقضيَّة الأساسيَّة، وهي أمر تبليغ الدَّعوة والرِّسالة السَّماويَّة؛ فالمقصود

---

[١] أخلاق النبي وآدابه، لأبي الشيخ الأصبهاني، دار المسلم للنشر، ١٩٩٨م، ٢٨٢/٤. وانظر: دلائل النبوَّة، لأبي نعيم الأصبهاني، دار النفائس– بيروت، ١٩٨٦م، ٦٢٧/١، ودلائل النبوّة، للبيهقي، تحقيق د.عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م، ٢٨٥/١، الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، دار الفيحاء– عمان، ١٤٠٧هـ، ٣٠٤/١، والخصائص الكبرى، للسيوطي، دار الكتب العلمية– بيروت، ١٩٨٥م، ١٣٠/١.

[٢] دلائل النبوَّة، لأبي نعيم الأصبهاني، ٦٢٧/١، والشفا للقاضي عياض ٣٠٧/١..

[٣] أخلاق النبي وآدابه، لأبي الشيخ الأصبهاني ٩/٢، ودلائل النُّبوَّة، لأبي نعيم الأصبهاني ٦٢٧/١، ودلائل النُّبوَّة، للبيهقي، والشفا، للقاضي عياض، ٣٠٧/١.

[٤] لسان العرب، لابن منظور، دار صادر– بيروت، (فخم)، ٤٤٩/١٢.

[٥] شرح الشفا، للملا الهروي، دار الكتب العلميَّة– بيروت، ١٤٢١هـ، ٣٤٣/١.

بـ(**متواصلُ الأحزانِ**) "أنَّه دائمُ السُّكوتِ نظراً لانشغاله بأمرِ الدَّعوةِ، وخوفه على أمَّتِهِ.."[١]، وقد كان حزنُهُ ﷺ يتعاظمُ حين يرى:

- مسلمًا ارتدَّ عنِ الإسلامِ.
- أو فاسقًا تعدَّى حدود ما حرَّم اللهُ .
- أو منافقًا يُظهرُ خلاف ما يُبطنُ .
- أو مستكبرًا ومعانداً يجحدُ نعمةَ اللهِ.

وكونُهُ ﷺ: (**دَائِمَ الْفِكْرَةِ**) إشارةٌ إلى أنَّ (تَوَاصُلَ أَحْزَانِهِ) إِنَّمَا كَانَ لِمَزِيدِ تَفَكُّرِهِ، وَاسْتِغْرَاقِهِ فِي شُهُودِ جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكِبْرِيَائِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَذَلِكَ يَسْتَدْعِي دَوَامَ الصَّمْتِ[٢]، ولنا وقفة مع قول هندٍ: (**ليستْ لَهُ راحَةٌ**)، فذكرها إطنابًا؛ إذ إنَّ (**عدَم الرَّاحةِ**) من لوازم الأحزان المتواصلة والتفكُّر الدائم، فهو ﷺ لا راحة له في الأمور الدّنيويّة، وقد تمَّ تقديم الجار والمجرورِ (**لَهُ**) على المبتدأ (**راحةٌ**)، وفي هذا التقديم إشارة لعناية هند بأمر رسول الله ﷺ واهتمامه به.

(**لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَّةٍ**) أَيْ: لا يتكلَّمُ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ دِينِيَّةٍ أَوْ دُنْيَوِيَّةٍ؛ فَيَتَحَرَّزُ عَنِ الْكَلَامِ بِلَا فَائِدَةٍ حِسِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ، وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَعْنِي[٣]، وَفِي شَأْنِهِ نَزَلَ قوله تَعَالَى: {**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى**} (النجم: ٣).

وفي وصف هند لطريقة كلامِ النَّبي ﷺ بأنَّه: **يفتتحُ الكلامَ ويختمُهُ بأشداقه، ويتكلَّمُ بجوامعُ الكلمِ** تفسيرٌ لجمالِ الأداءِ اللُّغويِّ عند النَّبيِّ ﷺ، فـ"الشِّدقُ: هو جانبُ الفَمِ.. ورجل أَشْدَق إذا كان مُتَفَوِّهًا ذا بيانٍ"[٤]، ورحابة الشِّدقين دلالة على جهارة الصَّوت، وجاء في وصف هند أنَّ النبيَّ ﷺ كان (ضَليع الفمِ) أي عَظِيمَهُ، وَقِيلَ وَاسِعَهُ، "وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَحْمَدُ ذَلِكَ وَتَذُمُّ صَغِيرَ الْفَمِ"[٥]؛ وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى قُوَّةِ فَصَاحَتِهِ وَسِعَةِ بَلَاغَتِهِ، وقد سأل الأصمعيُّ أعرابيًّا: ما الجمالُ؟ فقالَ: غؤور العينينِ، وإشراف الحاجبين، ورحب الشِّدقين"[٦]، فالجمال عند العربِ منه الجمالُ الحسِّي في العينِ، والجمالُ المعنوي في الكلام وحُسنِهِ، ونجدُ ونجدُ أنَّ هذه المحاسنِ قد تجمَّعتْ في رسولِ الله ﷺ طبيعةً لا تكلُّفًا، فالجمال المعنوي أشار إليه هند بنُ أبي هالة بقوله: "يفتتح الكلامَ ويختمه بأشداقِهِ"، وقوله: "ضليع الفمِ"، أمَّا الجمال المعنوي فقد جاء في جمال عيون النَّبيِّ ﷺ، وما جاورها مِن حواجبَ، وأشفارٍ، وأهدابٍ، وجاءت أوصافها عند هندٍ وأمِّ معبدٍ، وسيأتي شرحها في مكانها (إنْ شاء الله)، وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَسَاوِيكُمْ أَخْلَاقًا الثَّرْثَارُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ**)[٧]؛ فلا تعارضَ بين وصف هندٍ لطريقة كلام النبيِّ ﷺ بأنَّه يفتتحُ الكلام ويختمه

---

[١] أوصاف النَّبي ﷺ، للترمذي، تحقيق سميح عبَّاس، دار الجيل- بيروت، ص ٢٢٥ .

[٢] جمع الوسائل في شرح الشمائل، للهروي، المطبعة الشرفية، مصر، ١٠/٢.

[٣] المرجع السابق، ١٠/٢.

[٤] لسان العرب، لابن منظور، (ش د ق) ١٧٢/١٠.

[٥] دلائل النبوة للبيهقي، ٢٩٤/١.

[٦] دلائل النبوَّة للبيهقي، ٢٩٤/١، وانظر: البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هرون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ١٩٨٨م، ١٢١/١.

[٧] المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ٢٦٧/٢٩.

بأشداقه، وهذا الحديثِ؛ إذ إنَّ المُتَشدِّقونَ هم الذين يتوسَّعون في الكلام من غير احتراز بل ويتكلَّفونَ في الكلامِ.

وتفسير قوله: (**يتكلَّمُ بجوامع الكَلِم**)، أي: أنَّه ﷺ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِأَلْفَاظٍ يَسِيرَةٍ مُتَضَمِّنَةٍ لِمَعَانٍ كَثِيرَةٍ، فقد كان كلامه: (**فَصْلًا لا فُضُولَ فيهِ وَلا تَقْصير**)، (**فَصْلٌ**) على وزنِ (فَعْلٌ) للمبالغة؛ فكلامه ﷺ وَسَطٌ عَدْلٌ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ، وَالتَّفْرِيطِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ (لَا فُضُولَ، وَلَا تَقْصِيرَ) كَالْبَيَانِ لَهُ، وَالتَّفْسِيرِ، فكلامُه لَا زِيَادَةَ فيهِ، وَلَا نُقْصَانَ، وفي هذه العبارةُ مطابقة بين ضدّين: (فضول، وتقصير).

ولم يكن رسولُ الله ﷺ: (**بالجافي ولا المهين**) فلم يكن ﷺ غليظَ الطبع، ولا حَقِيرًا ذَمِيمًا بَلْ كَانَ عَظِيمًا فيه مِنْ أَنْوَارِ الْوَقَارِ وَالْمَهَابَةِ مَا تَرْتَعِدُ مِنْهُ فَرَائِصُ الْكُفَّارِ، وهذا ما ذكره هندُ في بدايةِ وصفه بأنَّه ﷺ كان **فَخْمًا مُفَخَّمًا**، فالرَّسول ﷺ لم يكن بالفظِّ ولا بالغليظِ، بل كان ليِّنَ الجانب سهل الخُلُقِ، فجاء الوصفُ بكلمة (دَمْثًا) فـ"(الدل والميم والثاء) أصلٌ واحد يدلُّ على لينٍ وسُهولة. فالدَّمَث: اللِّين.. والدّماثة: سُهولة الخُلُق"[١]، وقد خاطبه الله عزَّ وجلَّ قائلاً: {**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**} (آل عمران: ١٥٩)؛ لذلك تجمَّع حوله الصَّحابة ممتثلين أوامره في طاعة كاملة واحترام تام؛ لسهولة خُلُقِه، وسَعةِ صدرِه، وإعجازِ لَفظِه، فقد كان ذا فصاحةٍ منقطعةِ النَّظيرِ.

وينوِّع هندُ في وصفه بين الجُمَلِ الإسميَّة والفعليَّة: (يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ وَإِنْ دَقَّتْ، لا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَذُمُّ ذَوَّاقًا وَلا يَمْدَحُهُ، وَلا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا وَمَا كَانَ لَهَا، فَإِذَا تُعُدِّيَ الْحَقُّ لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ، لا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلا يَنْتَصِرُ لَهَا)؛ فلم يكنِ النبيُّ ﷺ محقِّرًا نعمةً حسيَّة أو معنويَّة، ولم يَسْتَصْغِرْ أو يستحْقِرْ شَيْئًا أُوتِيهِ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا، وما عابَ رسولُ اللهِ ﷺ طعامًا قط، بل ولم يكن ﷺ ليذم أي شيءٍ ممَّا يُذاق –طعامًا كانَ أم شرابًا- إذ إنَّ "ذوَّاقًا تقع على المأكولِ والمشروبِ، وهي **فعال** بمعنى **مفعول**"[٢]، وهنا يمدحُ هندُ رسول اللهِ ﷺ بتعظيمِه نِعَمَ الله تعالى الظاهرة والباطنة، ثمَّ يأتي **ليؤكِّد المدح بما يشبه الذَّم** وذلك قوله: "**غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَذُمُّ ذَوَّاقًا وَلا يَمْدَحُهُ**"؛ "لأنَّ ذمَّه شَأن المتكبِّرينَ، والاعتناءَ بمدحِهِ شأن ذوي الشَّرَه والنَّهمة والحِرص"[٣] ونلحَظُ في العبارات السَّابقة جاء الوصف جُمَلًا فعليَّة، مُكرِّرًا فيها مادة (**غضب**) ثلاث مرات، والفعل (**ينتصر**) مرَّتين؛ للاهتمام بأمر الغضب الذي طالما حذَّر منه النَّبيُّ ﷺ، فهو لا يغضب للدنيا الفانية، ولا يغضب لنفسه؛ لأنَّه لم يبقَ فيه من حظوظِ النفس وشهواتها شيءٌ.

وفي قول هند: (**.. إذا أشار أشارَ بكفِّها كلِّها، وإذا تعجَّبَ قلبها، وإذا تحدَّث اتَّصل بها، يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، إذا غضبَ أعرضَ وأشاحَ، وإذا فرِحَ غضَّ طرفهُ، جلَّ ضحِكهُ التَّبسُّم ويفترُّ عن مثل حبِّ الغمام**) توضيحٌ لاستخدام النَّبي ﷺ الحركة والإشارة لتدعيمِ المعنى، وهو بابٌ واسع؛ فهو ﷺ "(**إِذَا أَشَارَ**) أَيْ: إِلَى إِنْسَانٍ أَوْ غَيْرِهِ (**أَشَارَ**) إِلَيْهِ (**بِكَفِّهِ كُلِّهَا**)، أَيْ: جَمِيعِهَا، وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بِبَعْضِهَا لِأَنَّهُ مِنْ أَفْعَالِ الْمُتَكَبِّرِينَ، وَأَخْلَاقِ الْمُتَجَبِّرِينَ (**وَإِذَا تَعَجَّبَ**) أَيْ: فِي أَمْرٍ (**قَلَبَهَا**) أَيْ: قَلَبَ الْكَفَّ مِنَ الْهَيْئَةِ الَّتِي كَانَ وَضْعُ الْيَدِ عَلَيْهَا حَالَ التَّعَجُّبِ بِأَنْ يَكُونَ ظَهْرُ الْيَدِ فَوْقًا ؛ فَيَقْلِبُهَا بِأَنْ يَجْعَلَ بَطْنَهَا أَعْلَى إِشَارَةً إِلَى تَقَلُّبِ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْمُتَعَجَّبِ مِنْهُ أَوِ اكْتِفَاءً بِالْفِعْلِ عَنِ الْقَوْلِ فِي

---

[١] مقاييس اللُّغة لابن فارس، تحقيق عبد السلام هرون، دار الفكر، (دمث)، ٢/ ٢٩٩.

[٢] شرح السُّنَّة، للبغوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد الشاويش، المكتب الإسلامي– دمشق ١٩٨٣م، ١٣/٢٨٠.

[٣] أشرف الوسائل إلى شرح الشمائل، للهيتمي السعدي، تحقيق أحمد بن فريد، دار الكتب العلمية– بيروت، ١٩٩٨م، ص ص ٣١٥.

إِظْهَارِ التَّعَجُّبِ (**وَإِذَا تَحَدَّثَ**)، أَيْ: تَكَلَّمَ (**اتَّصَلَ**)، أَيْ: حَدِيثُهُ (**بِهَا**)، أَيْ: بِكَفِّهِ بِمَعْنَى أَنَّ حَدِيثَهُ يُقَارِنُ تَحْرِيكَهَا"[١]، والإشارةُ فرعٌ من ائتلاف اللَّفظِ مع المعنى، فالذي يُشيرُ بيده يُشيرُ إلى أشياء لو عبَّر عنها بلفظٍ لاحتاج إلى ألفاظٍ كثيرةٍ جدًّا، والنَّبيُّ ﷺ كان يستخدمُ الحركةَ والإشارة في أحاديثه الشريفةَ؛ لِما لها من دلالات عميقة في إيضاح المعاني وترسيخها في النفوس، لذا كان اهتمامه ﷺ بها بالغاً، باعتبارها وسائل إيضاحٍ وتشويقٍ تعينه على توصيل المعنى؛ فالإشارة أو الحركة إذا صاحبتِ البيانَ اللفظيَّ ازداد الأمرُ رسوخاً في نفوسِ السَّامعين، وقد كانَ هندُ قريبًا من النبيِّ ﷺ؛ لذا بيَّنَ طريقةَ استعماله ﷺ الإشارة معضِّدًا بها العبارة.

والنَّبيُّ ﷺ يغضَبُ إذا انتُهِكَتْ الحُرُماتُ، ولكنَّه "إِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ" أعرضَ بوجهه عمَّن غضبَ عليه، وذلك لحلمه، أمَّا كلمة **أشاح** فتعنى: صَرَفَ وجهَهَ، وفيها تأكيد لمعنى الإعراض؛ إذ إنَّ الإعراض عن المتكلِّم في أثناء كلامه يحمل من الدلالات ما قد تعجز عنه اللغة المنطوقة، كالتَّعبير عن الغضب أو عدم الرضاء عن شيءٍ ما، وقد كانَ النَّبيُّ –صلَّى الله عليه وسلَّم- يُستخدمُ هذه الحركة الجسميَّة ليبيِّن موقفه تجاه فعلٍ معين.

وكان النَّبيُّ ﷺ إِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرْفَهُ، جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ، يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ، فالنَّبيُّ ﷺ كان لا يزيد على التبسُّمِ فى معظم أحواله، وورد أنَّه ضحك حتَّى بدت نواجذه، فليس المكروه الضَّحكُ في حدِّ ذاتِهِ وإنَّما "المكروه هو الإكثار منه والإفراط فيه؛ لأنه يذهب الوقار"[٢]، فالأنبياء عمومًا ضَحِكُهم في مُعظَمِه- تبسُّمًا، ولنا أن نستأنس بقول السعدي في تفسيره قولَ الله تعالى: {**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا**} (النمل: ١٩)، "إعجابًا مِنهُ بِفصاحتِها ونُصحِها وحُسنِ تَعبيرِها. وهذا حالُ الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التَّبسُّم، كما كان الرَّسول -صلَّى اللهُ عليه وَسَلَّم- جُلَّ ضَحِكِه التَّبسُّم؛ فإنَّ القَهقهة تدلُّ على خِفَّة العَقْلِ وسوءِ الأدبِ، وعدمُ التَّبسُّم والعجب ممَّا يُتعجَّب مِنه، يدلُّ عَلَى شراسَةِ الخُلُقِ والجبروتِ، والرسل منزَّهونَ عَن ذلك"[٣]. فالابتسامةُ عمومًا مِن أهمّ الأسباب التي تؤثِّر في السامعينَ وتعين على تغيير المواقف الخاطئة، خاصَّة لو أنها جاءتْ من المربِّي والمعلِّم والقدوة.

المبحث الثاني: وصف أمَّ معبدٍ الخزاعيَّة، مناسبته وشرحه:

مناسبة وصف أمِّ معبد:

مرَّ رسولُ الله ﷺ ومَن معه على أمِّ مَعبدٍ في قُـدَيْدٍ[٤]، حيث مساكن قبيلة خزاعة وهم في طريقهم إلى المدينة، وقصتها معهم مشهورة؛ فقد نزل عندها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ومعه: أبو بكر

---

[١] الهروي (علي بن سلطان محمد): جمع الوسائل في شرح الشمائل ١٣/٢.

[٢] المواهب اللدنيَّة بالمنح المحمديَّة، للقسطلاني، المكتبة التوقيفيَّة– مصر، ٦٢/٢.

[٣] تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، تحقيق عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ص ٦٠٤.

[٤] قُدَيْدٌ بِضَمِّ الْقَافِ وَفَتْحِ الدَّالِ موضع حصين بين مكة والمدينة، يبعد عن الطريق المعبدة حوالي ثمانية كليومترات، قال ياقوت الحموي: "قد يكون تصغير القِدد، من قوله تعالى: {طَرَائِقَ قِدَداً} (الجن: ١١)، وهي الفِرق.. وقديد: اسم موضع قرب مكة.." (معجم البلدان، دار صادر، ١٩٩٥م، ٣١٣/٤).

الصِّدِّيق ﷺ، ومولى لأبي بكر يقال له: عامر بن فهيرة[١] وعبد الله بن الأريقط الليثي[٢] دليلهم، فطلبوا منها ابتياع لبنٍ أو لحم فلم يجدوا عندها شيئاً، غير أنَّ الجهدَ قدْ خلَّف شاةً عن الرعيَّة، فاستأذنَ النَّبيُّ ﷺ أمَّ معبدٍ في حَلْبِ تلك الشاة، فأَذِنَتْ وقالت له لو كان بها حَلْبٌ أصبناهُ نحنُ، فمسح رسول الله صَلَّى الله عليهِ وسلَّم على ضرع الشاة ودعا الله عزَّ وجلَّ فدرَّ اللبنُ، فحلب وسقى القومَ وأرواهمْ، ثم شربَ آخرهم، وحلبَ وملأ الإناء وتركه آيةً جليَّة، ولمَّا جاء أبو معبدٍ ورأى اللبن سألها متعجباً: أنَّى لكِ هذا ولا حَلوب في البيتِ تبِضُّ بقطرة لبن؟! فحكتِ القصَّة، فقال لها: صِفِيهِ، فقالتْ:

(رأيتُ رَجُلاً ظَاهِرَ الوَضَاءَةِ، حَسَنَ الخلق، أَبْلَجَ الوَجْهِ .. الخ الوصف)[٣].

وقبل أن نشرع في تحليل هذا الوصف نقف أمام هذا الموكب المتواضع، الذي لا يزيد على أربعةِ أفراد، أولهم رسولُ الله ﷺ، والثاني صاحبه في الغار أبو بكرٍ الصديق ﷺ، والثالث: دليلهم عبد الله بن أريقط، ورابعهم عامر بن فهيرة، إنَّه موكبٌ صغيرٌ في الحسِّ لكنَّه كبيرٌ في المعنى، موكبٌ مهيبٌ وقف التاريخ متجهاً نحوه، يرقبه، وينظره، ويسجل أحداثه لحظة فلحظة، فقد أحدث هذا الموكب في تاريخ البشريَّة كلِّها تغييراتٍ جذرية طرأت على أمم الأرض، وحضارتها، تلك التغييرات التي بدأت بوصول النبيِّ ﷺ ومَنْ معه إلى المدينةِ المنوَّرة فبدأ تأسيس أعظمِ حضارة ، وأكبر دولة عرفها العالم.

نعودُ للحديث عنْ هذا الوصف؛ فقد كان هذا الوصف إجابة عن سؤال أبي معبدٍ لأمِّ معبدٍ، فوصفت ذلك الرجل المباركَ قائلةً:

(رأيتُ رَجُلاً ظَاهِرَ الوَضَاءَةِ، حَسَنَ الخلق، أَبْلَجَ الوَجْهِ، لَمْ تعبْهُ ثُجْلَةٌ[٤]، ولم تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ[٥]، وَسِيماً قَسِيماً، فِي عَيْنَيهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ، أحورَ أكحلَ أَزَجَّ أقرَنَ، فِي عُنُقِهِ

---

[١] أبو عمرو عامر بن فهيرة من مولدي الازد أسود اللون، وكان أولاً مولى للطفيل بن الحارث أخي عائشة لأُمِّها (أم رومان)، فأسلم قديماً قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبى الأرقم، كان حسن الإسلام وَعُذِّبَ في الله فاشتراه أبو بكر فأعتقه. يُنظَر: أُسْد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، دار الفكر، ص٥٦٣.

[٢] عبد الله بن أريقط وقيل: الأُريقط الليثي الديلي من بني الديل، دليل النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ حين خرجا من مكة، روى في الخبر: "أنَّه كان هاديا خريتا" والخريت: البصير بالطريق إلى كل فج والماهر في الهداية، كان على دين قومه، ولكنَّه معروف مشهور بالأمانة والوفاء، وبمعرفة الطريق، (الطبقات الكبرى، لابن سعد، تحقيق إحسان عباس، دار صادر– بيروت، ١٩٦٨م، ٢٢٨/١)، وذكر النَّووي في: تهذيب الأسماء واللُّغات، طبعة دار الكتب العلمية– بيروت، ٢٥/١، أنَّ: "عبد الله بن الأريقط الليثى كافر ولا يُعلم له إسلام".

[٣] دلائل النبوَّة، للبيهقي، ٢٧٩/١، السيرة النبوية، لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، ٢٦١/٢، والبداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة المعارف– بيروت، ١٩٢/٣، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ١٨٠/١.

[٤] الثُّجْلة استرخاء البطن. لسان العرب لابن منظور، (ثجل) ٣٨٠/١١.

[٥] والصَّعْلة صِغَرُ الرأْس، وقيلَ: الصَّعْلَة هي الدِّقّة والنُّحول والخِفَّة فِي الْبَدَنِ. انظر: (لسان العرب لابن منظور، "ص ع ل" ٣٧٩/١١).

سَطَعٌ، وَفِي لَحْيَتِه كَثَاثَةٌ[١]، إِذَا صَمَتَ فَعَلَيْهِ الوَقَارُ، وإِذَا تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلاهُ البَهَاءُ، حُلْوُ المنْطِقِ، فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذَرٌ، كأَنَّ منطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ، أبهى النَّاس، وأجمَلُه مِن بَعيد، وَأَحْلاهُ وَأَحْسَنُهُ مِن قَرِيب، ربْعَةٌ لا تَشْنَؤه عَينٌ مِن طُولٍ، ولا تقتَحمُهُ عينٌ مِن قِصَرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصنَيْنِ، فَهُو أَنْضَرُ الثَّلاثَةِ منظَرًا، وأحسنُهُمْ قدًّا، لَهُ رُفَقَاءُ يَحفُّونَ بِهِ، إِنْ قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَولِهِ، وإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُواْ لأَمْرِهِ، محفودٌ محشودٌ، لا عابس ولا مُفَنَّد..)[٢].

تناولت أمُّ معبدٍ وصف النبيِّ صلى الله عليه وسلَّمَ من نواحٍ منها:

الجمال الخَلْقي فقالت: ".. ظاهر الوَضاءة، أبلَج الوجهِ حَسَن، وسيماً قسيماً، في عينيه دَعَجٌ، وفي أشفاره وَطَفٌ .." وفي قولها: ظاهر الوَضَاءَةِ، أَبْلَجَ الوَجْهِ إشارةٌ إلى طَلاقة وجهِ النّبيِّ ﷺ وحَسُنِهِ، وهو البَلَجُ، قال الجوهري: "البُلْجَةُ نَقاوَةُ ما بين الحاجبين"[٣]، يقال: رجلٌ أَبْلَجُ بَيِّنُ البَلَجِ، إذا لم يكن مقروناً. **وأَبْلَجُ الوجهِ"** أي مُسْفِرهُ مُشْرِقُه. "والأَبْلَجُ: الَّذِي وَضَح مَا بَيْنَ حَاجِبَيْهِ فَلَمْ يَقْتَرِنَا"[٤]، لذا كان ﷺ ظاهر الوضاءة. وفي هذا القول إشارةٌ إلى أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن مقترن الحواجب، وسنؤخِّر الحديث عن وصفها النبيَّ ﷺ بالقَرن، لبعض التدبير.

أمَّا قولها: **(وسيماً قسيماً)**؛ فالوسامة هي الحُسْنُ الوَضيءُ الثابتُ، والوسيمُ الثابتُ الحُسْنِ.. وفلان وسيم أي حَسَن الوَجْهِ، والقَسامةُ هي الحُسْنُ. ورجل مُقَسَّم الوجهِ أي جميلٌ كلُّه كأَن كل موضع منه أَخذ قِسْماً من الجمال"[٥]. وقد تجمَّعتِ الوسامة والقسامة في النبيِّ ﷺ. وجاءت عبارة (وسيماً قسيماً) غايةً في الجمال؛ إذ يُعَدُّ هذا الضَّرْبُ من الكلام من باب [**الإتباع والمزاوجة**] الذي قال عنه ابن فارس: "وكلاهما – أي الإتباع والمزاوجة - على وجهين:

أحدهما: أن تكون كلمتان متواليتان على روى واحد.

والوجه الآخر: أن يختلف الرويَّان، ثم تكون بعد ذلك على وجهين، أحدهما: أن تكون الكلمة الثانية ذات معنى معروف، إلا أنَّها كالإتباع لما قبلها. والآخر: أن تكون الثانية غير واضحة المعنى ولا بنية الاشتقاق"[٦] فقيل له ﷺ وسيم قسيم أي حَسَنٌ وَضِيءٌ ثَابِتٌ، ولله درُّ ابن الفارض (عمر بن علي ت ٥٧٦هـ) إذ يقول (بحر الكامل):

فأَدِرْ لِحَاظَكَ في محاسنِ وجْهِهِ ** تَلْقَى جميعَ الحُسْنِ فيه مُصَوَّرا
لو أنّ كُلّ الحُسْنِ يكمُلُ صُورةً ** ورآهُ كان مُهَلِّلاً ومُكَبِّرا[٧]

---

[١] كَثَّتِ اللحيةُ كَثَثاً وكَثاثَةً وكُثُوثةً أي: كَثُرت أُصولُها وكَثُفَتْ وقَصُرَتْ، وفي صفته ﷺ أَنه كان كَثَّ للحية أَراد كَثرةَ أُصولها وشعرها، وأَنها ليست بدقيقة ولا طويلة وفيها كَثافة. والرجُلٌ يُقالُ له: كَثُّ اللِّحْيَة بالفتح، وللجماعة يُقالُ: قوْمٌ كُثُّ بالضَّم. (لسان العرب لابن منظور "كثث" ١٧٩/٢).

[٢] دلائل النبوَّة للبيهقي ٢٠٥/١، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير، ١٩٣/٣.

[٣] الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، تحقيق محمد زكريا يوسف، دار العلم للملايين– بيروت، ١٩٩٠، (بلج)، ٣٢٣/٢.

[٤] لسان العرب لابن منظور، (بلج) ٢١٥/٢.

[٥] المصدر السابق، (وسم) ٦٣٧/١٢.

[٦] الإتباع والمزاوجة، لابن فارس، مكتبة الخانجي– القاهرة، ص ٢٨.

[٧] ديوان ابن الفارض، قدَّمه السيد حسن، مكتبة الحسين الإسلاميَّة– القاهرة، ص ٩٨.

ثُمَّ أشارتْ بعد ذلك إلى جمالِ عيونِهِ ﷺ فقالتْ: **"في عينيه دَعَجٌ وفي أشفاره وَطَفٌ"**، والدَّعَجُ والدُّعْجَةُ: السَّوادُ؛ وقيل: "شدَّة سوادِ العينِ مع سَعَتِها"[١]، أمَّا **الوَطَفُ** فهو كثرة شعر الحاجبين والعينين، والمعنى أنَّه كان في هُدْب أشفار عينيه طول؛ وفي حديث آخر: **"أَنَّه كان أَهْدَب الأَشْفار"**[٢] أي طويل شعر الأجفان.

- **انتقلتْ بعد ذلك لتواصلَ وصفها عيْنَيْ رسولِ الله** ﷺ؛ فقالتْ: **(أحورَ أكحلَ أَزَجَّ أقرَنَ)** وكلها من صفات العيون المحمودة -عدا (**أقْرَنْ**)- ونبدأ بـ:

- **(الحَوَر)** وهو: "شدَّة سوادِ المُقْلة في شِدّة بياضِها في شدّة بياضِ جلدِ الجَسَم"[٣].
- **أمَّا (الكَحَلُ)** فهو سَوَاد الجفون خِلْقَة، "ورجلٌ أَكْحَلُ بيِّن الكَحَلِ، وهو الذي يعلو جفونَ عينيه سوادٌ"[٤] مثلُ الكُحْلِ من غيرِ اكتحالٍ؛ إذ ليس المصنوع كالمطبوع.
- **والزَّجَجُ والبَلَجِ والقَرَنُ** من صفات الحواجب؛ فالزَّجَجُ، وهو طُولُهما ودِقَّتهما وسُبُوغُهما إلى مُؤَخَّر الشعر في غير قَرَنٍ، يُقالُ رجلٌ أزَجُّ، وامرأة زَجَّاءُ، أمَّا البَلَج فهو أن يَنْقطع ما بين الحاجبين فلا يكونَ بَيْنهما شيءٌ من الشَّعَرِ، و"العرب تستحسن البَلَج وتَمْدح به، ويكرهون القَرَن"[٥] بحيث يطول الحاجبانِ حتى يلتقي طرفاهما، ولم تُرِدْ أمُّ معبدٍ **قَرَن الحَواجِب**، إذ إنَّها ذكرتْ في مقدِّمةِ الوصفِ أنَّه ﷺ **(أبلجَ الوجه)** وفي ذلك إشارة لنقاوة ما بين الحاجبين.

وهنا موطن اختلاف بين الوصفين إذ إنَّ هندًا ذكرَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كانَ ".. **أزجّ الحواجبِ سَوابِغ في غَيرِ قَرَنٍ**."[٦]، والكثيرون مِن شرّاح السيرة النبويَّة يروَن أنَّ القولَ الأصحّ ما ذكره هندُ بنُ أبي هالة؛ إذ لم يكنْ حاجبا النَّبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلَّم مقترنين، والقَرَنُ هو طُولُ الْحَاجِبَينِ حَتَّى يَلْتَقِي طَرَفَاهُمَا، ولم يكُن محمودًا عندَ العربِ، بل كانتِ العربُ تستحِبُّ البَلَج.

وجَمع بعضُهم[٧] بين الوصفين إذ يروَن أنَّه كان بين حاجبيَ النبيِّ ﷺ فرجة دقيقة لا تظهر إلا لمتأملٍ، فهو فهو ﷺ غير أقرن في الواقع، وإن كان أقرن حسب الظاهر عند غير المتأمِّل؛ لأنَّ حاجبيهِ سبغا حتَّى كادا يلتقيان، "فكأنَّه ﷺ قد جَمَعَ بين لَطَافَةِ الْعَرَبِ وَظَرَافَةِ الْعَجَمِ"[٨].

والعرب قديماً كانت تجعل من العيون معياراً من معايير الجمال، وأكثرَت مِن ذِكرها في الشعر.

ومعنى قولها: **(وفي صوته صَحَلٌ، وفي عُنُقِهِ سَطَع)**

والصَّحَلُ: صوتٌ فيه بحَّة[١]، أو هي البَحَّةُ، أمَّا وَطَفُ الأشفار؛ فيقصد به طول شعر الرموش.

---

[١] الصحاح للجوهري، (دعج)،٣١٤/١. وانظر: لسان العرب لابن منظور، (دعج) ٢٧١/٢.

[٢] مجمع الزوائد، للهيثمي، دار الكتاب العربي– بيروت، د.ط، ١٤٠٧هـ، ٢٧٢/٨.

[٣] لسان العرب لابن منظور، (حور) ٢١٧/٤.

[٤] المصدر السابق، (كحل)، ٥٨٤/١١.

[٥] المخصص لابن سيدة، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ١٤١٧هـ، ٩٥/١.

[٦] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٦/٦.

[٧] سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد، للشامي (محمد بن يوسف)، دار الكتب العلميَّة– بيروت، ١٩٩٣م، ٢٢/٢، وجمع الوسائل في شرح الشمائل للهَرَوي، ٣٦/١.

[٨] وجمع الوسائل في شرح الشمائل للهَرَوي، ٣٦/١.

وفي عُنُقِهِ سَطَعٌ: وفي ذلك إشارة لصفاء عنق النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم ونقائه، فقد كان عُنُقُه ﷺ كأنَّهُ (جِيدُ دمْيَةٍ، في صفاء الفضة)، والدميةُ: الصُّورةُ، شبهها بالفضة في بياضها، هذا ما ذكره **هند بن أبي هالة** في وصفِه للنبيِّ ﷺ يقول: ".. كأنَّ عنقَه جيدُ دميةٍ في صفاء الفضة.."[٢]، فالدميةُ هي الصُّورة التي بولغ في تحسينها، وإلى هذا أشار علي بن أبي طالبٍ ﷺ: "كثّ اللحية.. كأن عنقه إبريق فضة"[٣]، فقد كان رسولِ الله ﷺ أحسنُ عبادِ الله عنقاً، لا ينسب إلى الطول ولا إلى القِصَرِ، يتلألأ في بياض الفضة وحمرة الذَّهب.

ثم تحدَّثتْ أم معبد بعد ذلك عن الوقار الذي يكسوه، والبهاء الذي يعلوه في حالتي: (الصَّمت والكلام)، فقالت: "**إِذَا صَمَتَ فَعَلَيْهِ الوَقَارُ، وإِذَا تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلاهُ البَهَاءُ**"، وفوق هذا وذاك كان: "**حُلْوُ المَنْطِقِ، فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ، كأنَّ منطقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ**"، والنزر: القليل التافه. و"النزر والنزير القليل من كل شيءٍ"[٤].. ويمكن أن يُوصفُ المنطقُ بأنَّه رخيمُ الحواشي لا هراء ولا نزر أي إنَّ الكلام مختصر، وهذا ضد الهذر والإكثار.

ولعلَّ تجليَّات نصِّ وصَف أمِّ معبدٍ جاءت واضحةً عند الصَّرصري[٥] الذي تشرَّب مفردات التراث الدِّيني، فتسرَّب هذا المعنى إلى نصِّهِ الشِّعري الذي يمثِّلُ جانبًا مِنْ جوانِبِ انفتاح النُّصوصِ الحاضرةِ على الموروث الثقافي والدِّيني للأمَّة، وذلك قوله: (بحر الخفيف)

هاشميٌّ لَهُ العفافُ إزارُ وله الحسنُ والجَمالُ رداءُ
يخجلُ البدرُ ليلة التَّمِّ إمَّا ضَمّ عِطفيه حلةٌ حمراءُ
ثُمَّ يزدادُ نُورهُ إنْ تَبَدَّى وعَلَيهِ العُمامةُ السَّوداءُ
إنْ **بدا صامتاً علاهُ وقارُ** أوْ **سَمَا ناطقاً علاهُ البهاءُ**[٦]

و**النَّزر** في وصفِ أمِّ معبد للمنطق النَّبويِّ: (**لا نَزْرٌ ولا هذر**) معناه: القليل؛ أي ليس بقليل فيدلّ على عَيٍّ، ولا كثيرٍ فاسدٍ، فقد كان كلامه فيصلاً لا قليلٌ تافهٌ، ولا كثيرٌ مَعيبٌ، كيف وأنَّه أُوتِيَ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وهو قوله ﷺ: ".. بُعِثْتُ بِجَوامِعِ الكَلِمِ ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ"[٧]. وفي هذا الوصف تطابقٌ جميلٌ بين **النَّزر**، بمعنى: القليل، **والهَذْر**، بمعنى الكلام الكثير.

ولله در محمد المجذوب في مدحه للنبيِّ ﷺ: (بحر الطويل)

---

[١] كتاب العين، للفراهيدي، تحقيق د/مهدي المخزومي، ود/إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (صحل) ١١٧/٣، يُنظَر: لسان العرب لابن منظور، (صحل) ٣٧٧/١١.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٦/٦.

[٣] الخصائص الكبرى، للسيوطي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٢٧.

[٤] لسان العرب لابن منظور، (نزر) ٢٠٣/٥.

[٥] الصرصري (٥٨٨ – ٦٥٦هـ) أبو زكريا يحيى بن يوسف بن يحيى الانصاري، العلامة الزاهد الضَّرير، شاعر من أهل صرصر (على مقربة من بغداد) سكن بغداد، وكان فصيحاً بليغاً، أكثر شعره في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وشعره طبقة عالية، قتله التتار يوم دخلوا بغداد، بعد أنْ قَتَلَ أحدَهم بعكَّازِه. (ترجمته في: فوات الوفيات لصلاح الدين محمد بن شاكر، ٢٩٨/٤، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة، ٢٣٦/١٣).

[٦] النظم المختار مِن مدائح المختار، للصرصري، تحقيق د/ محمد محمد داود، ٢٠٠٤م، ص ٤٣ – ٤٤.

[٧] صحيح البخاري، للبخاري ٢٦٥٤/٦.

سَــــلامٌ عَلَى فَمِّ النَّبيِّ مُـحَمَّدٍ لَفَـــمٌ بِهِ درٌّ نَفيــسٌ مُنظَّـمُ
بِغَيرِ كَلامِ اللهِ والذِّكرِ والنِّدا[١] لِحَضـرَةِ مَــــوْلاهُ فَلا يَتَكَـلَّمُ[٢]

فقد كان ﷺ ذا فصاحةٍ منقطعةِ النَّظيرِ، سِحْرٌ في الكلامِ، وعذوبةٌ في المنْطِقِ، فقد جَمَعَ النَّبيُّ ﷺ بين سلامةِ المعاني وسموها، وبين حسن اختيار الألفاظِ المناسبة في الحال المناسبِ، فكان التناسق التامُّ بين المعاني الرفيعة الكريمة والألفاظِ الجميلةِ الشريفةِ، حتَّى إنَّ العربَ احتاروا في فصاحتِهِ وقوَّة بيانِهِ وهو لم يخرج من الجزيرة العربية، وقد بلغ في البلاغةِ شأواً قَصَّر عنه كلُّ فصيحٍ، عذوبة في المنطِقِ، ووضوحُ في الألفاظِ.

ثم تحدَّثتْ أمُّ معبدٍ بعد ذلك عن جماله وحسنه ونَضَارِهِ ﷺ قُرباً وبُعداً، فقالتْ: (**أبهى الناس، وأجمله من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب غُصْنٌ بَيْنَ غُصنَيْنِ .. فَهُو أَنْضَرُ الثَّلاثَةِ منظَرَاً، وأحسنُهُمْ قَدَّاً**) .. وقد أعجبها النَّبي فتحدَّثت عن طريقة كلامه، وعن جماله (قربًا وبعدًا)؛ فهو: (**إذَا صَمَتَ فَعَلَيْهِ الوَقَارُ، وإذَا تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلاهُ البَهَاءُ) وهو: (أبهى الناس، وأجمله من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب)**، وكأنَّ لسانَ حالها يقول: إذا صَمتَ قلنا ليتَه لا يتكلّم (**لوقارِهِ**)، وإذا تكلَّم قلنا ليْتَه لم يسكُتْ (**لبهائِه**)، وإذا كانَ بعيدًا قلنا ليتَهُ لم يقْتَربْ (**لجماله وبهائِه**) وإذا اقتربَ قلنا لم يبتعِدْ (**لحلاوته وحُسْنِهِ**).

ثُمَّ قالت (فهو أنضر الثلاثة منظراً **وأحسنهم قدّاً**)، نلحظُ أنَّ أغلب كتب السِّيرة والشمائل المحمَّديَّة ذكرت في هذا الوصف عبارة (**وأحسنهم قدراً**) بدلاً عن (**وأَحَسنُهم قدَّاً**) عدا الحافظ ابن كثير في: (السيرة النبويَّة ٢٦١/٢) وفي: (البداية والنهاية ٣٤/٦)، وأبي زهرة في: (خاتم النبيين ٢٣٨/١) فقد ذكرا (**وأحسنُهم قدَّاً**)، والقدُّ في اللُّغةِ يعني القوام، ويؤيِّدُ الباحثُ رواية (**وأحسنهم قدَّاً**) لاعتباراتٍ، منها:

- أنَّ **القدرَ** لا يُوصَف بالحسنِ إلا نادراً، ولكن كثيراً ما يُشار إليهِ بـ(النُّبل، والجلال، والرفعةِ، والعُلُوِّ) فيُقال: (نبيلُ القَدْرِ عالي الهِمَّة)، (جَليل القَدْرِ عَالي الأمر)، (رَفيع القَدْرِ عالي الهمة).
- وأنَّ **القَدَّ** بمعنى: **(قامة الرَّجل، وبمعنى تقطيعه)** غالباً ما يوصف بالحُسنِ، فيُقالُ: "وغُلامٌ حَسَنُ القَدِّ، أي الاعتدالِ والجِسْمِ. وشيءُ حَسَنُ القَدِّ، أي حَسَنُ التقطيع"[٣]، وإلى هذا أشار القلقشندي:".. الحُسْنُ في كل لونٍ مستحسن .. ومنها حُسْن القَدِّ، وأحسن القدود الرَّبْعَة وهو المعتدل القامة الذي لا يكون فيه طول ولا قصر.. وقد جاء في وصف النبي أنَّه كان رَبْعَة"[٤].
- ومِن جهةِ السياق اللُّغوي؛ فإنَّ العبارة التي قبلها: (فهو أنضَرُ الثلاثةِ مَنظرًا)، تدلُّ من على الجمال الحِسِّي (المنظر) الذي يتناسَبُ مع القوام (القَدّ) أكثر منه مع (القَدر).

وقولها: (**محفودٌ محشودٌ**)، أي: عنده جماعة من أصحابه يطيعونه يخدمونه، ويحفُّونه، (لا **عابس** ولا **مُفَنَّد**) غير عابس الوجه، وكلامه خالٍ من الخُرافة؛ فالفَنَدُ يعني: "الخَرَفُ، وإنْكارُ العَقْلِ من الهَرَمِ أو المَرَضِ"[٥]، وهي صفةٌ خاصَّةٌ بالذكرِ دونَ الأنثى؛ فيُقالُ: "شيخٌ مُفَنَّد، ولا يُقالُ للأنثى مفنَّدة؛ لأنَّها لم تَكُنْ

---

[١] النداء، أصلها بالمد (النداء) ولكنَّ الشاعر قصرها تخفيفاً، أو للضرورة الشعريَّة .

[٢] ديوان الشيخ المجذوب، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، د.ت، ص ١٢١ .

[٣] تاج العروس للزبيدي، (قدد)، ١٣/٩، لسان العرب، لابن منظور، (قدد)، ٣٤٣/٣.

[٤] صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقَلقشندي، دار الفكر– دمشق، ١٩٨٧، ج ٧/٢.

[٥] المحكم لابن سيدة، (فند)، ٣٥٢/٩.

تَكُنْ ذاتَ رَأْيٍ في شَبابِها فتُفَنَّدَ.. والفَنَدُ: الخَطأُ في القولِ والرأيِ"[١]؛ لذا نجدهم يرَونَ أنَّ المرأةَ لا يُقالُ لها مفنَّدة؛ إذ لا رأيَ لها، فَمن أينَ تُفَنَّدُ.

وقد لخَّص الزينُ العراقيُّ وصفَ أمِّ معبدٍ في ألفيَّته، قائلًا:

تقـــولُ فيهِ بِلِســـانٍ نَاعِتِ أبْلَـــجُ وجهٍ ظَـــاهِرُ الوضَّاءَةِ
الخَـــلْقُ مِنْهُ لمْ تَعِبْهُ ثَجْلَهْ كَلاَّ ولَمْ تُزْرِ بِـــهِ مِـــنْ صَـــعْلَهْ
أَدَعْجُ والأهدابُ فيها وَطَفُ مِنْ طولِها أو غَطَفٌ أوَ عَطَفُ
والجِيدُ فيهِ سَـــطَعٌ، وَسِـــيمُ والصَّـــوْتُ فيهِ صَحَل، قَســـيمُ
كيثَـفُ لِـــحْـــيةٍ، أَزَجُّ، أَقْـرَنُ أَحْـــلاه مِـــنْ قُـــرْبٍ لَهُ وأحسن
أجـمـلـه مِنْ بُـــعْـــدٍ وَأَبْـــهى يَعْـــلُوهُ إذَا مـــا تَكَـــلَّـــمُ الْبَهَا
كَذاكَ يَعْلُوهُ الوقار إن صمتْ مـنْطِقُـــهُ كَـخَـــرزٍ تَـــحَدَّرَتْ
فَصْـــلُ الكلامِ ليسَ فيه هَذَرُ حُـــلْوُ المَقَـــالِ مـــا عَـــرَاهُ نَزْرُ
لا بَائِنٌ طُـــولًا، ولا يُـــقْتَـــحَمُ مِنْ قِصَرٍ، فهْوَ عَلَيهِـــمْ يُعَظَّـمُ
بِنَضْـــرَةِ المَنْـــظَرِ والمِقدَارِ تَحُـــفُّـــهُ الرِّفْـــقَـــةُ بائتِمَـــارِ
إنْ أُمِـرُوا.. تَـبَـادَروا امْتِثَالا أوَ قـــالَ قولًا.. أنْصَـتوا إجْلالا
فَهْـــوَ لدَى أصحابِهِ مَحْفودُ أيْ: يُسْـــرِعونَ طَاعَةً، مَحْشودُ
لـيـسَ بعـــابِسٍ، ولا مُـفَـــنِّدِ بِـــذَاكَ عَـــرَّفَـــتْـــهُ أمُّ مَـــعْـــبَـــدِ[٢]

فهذا النَّبيُّ الحبيبُ الذي قد مَسّت يَداهُ ضرعَ شاة أمِّ معبدٍ فَدَرَّ ثديُها، والنَّبيُّ ﷺ يَحلِبُ ويَسقي، يسقي القوم لبناً خالصاً ويسقيهمُ قبل ذاك خُلُقاً وديناً قيِّماً، ولو أنَّنا استرسلنا في الحديث لما أوفينا الحبيبَ ﷺ حقَّه.

المبحث الثَّالث: الدِّراسة التطبيقيَّة

كان لكلٍّ مِن **هندِ بنِ أبي هالة، وأمِّ معبدٍ الخُزاعيَّة** مَلَكَةٌ هائلةٌ، وقدرةٌ عجيبةٌ على الوصف، فجاءتْ أوصافهما دقيقةً في تصويرها، صادِقَةً في تعبيرها، فقد تميَّزَ الوصفان بأنْ جاءَت جميعُ الجُمَلِ فيها بالأسلوب الخَبَري، ونلحظُ خُلُوَّها مِن أدوات التوكيدِ، فكان الخبرُ فيها ابتدائيًّا، والجميلُ في ذلك هو التنوُّعُ الحاصلُ في تلك الجُمَلِ بين الاسميَّةِ والفعليَّةِ.

وسنعقد هنا مقارنةً بين الوصفين اتِّفاقًا –وهو الأكثر- واختلافًا، مع ذكر بلاغة الوصف:

قال هند ابن أبي هالة:

- (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **فَخْمًا مُفَخَّمًا يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ)**

قالت أمِّ معبدٍ الخُزاعيَّة:

- **(رأيتُ رَجُلاً ظَاهِرَ الوَضَاءَةِ، حَسَنَ الخلقِ، أبْلَجَ الوَجْهِ)**

اتَّفقَ كلٌّ مِنْ هند أمِّ معبدٍ على جمالِ وجه النَّبيِّ ﷺ وطلاقَتِهِ، ونجد في عبارةِ هندِ بنِ أبي هالة (**تشبيهًا بليغًا**) إذ شبَّه تلألأَ وجهِ النَّبيِّ ﷺ بتلألُئِ القَمر ليلَة البدر، فحذَف أداةَ التشبيهِ ووجه الشَّبه، وفي وصفِ هند: (**يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ**) إشارةً إلى أنَّ إشراقَ النَّبيِّ ﷺ بالمعارف إنَّما كان مستمدًّا من فيض أنوار الحضرة القدسيَّة عليه؛ لإقباله عليهَا، ومقابلته لها؛ "فإنَّ البَدرَ يُشْرِقُ بِما يَفيضُ

---

[١] المصدر السابق، ٣٥٢/٩.

[٢] ألفية السيرة النبويَّة لزين الدين العراقي، دار المنهاج- بيروت، ١٤٢٦هـ، ص ٧٨-٧٩.

عليهِ مِن نورِ الشَّمسِ عِندَ مُقابَلتِهِ لَهَا"[١]، وما أجملَه من تعبيرٍ عندَ هِندٍ حين عبَّر عن الفَخامة التي زادتْ وَجهَ النَّبيِّ ﷺ جمالًا ومهابَةً، فقد اختار هندُ البِنيَةَ الصرفيَّة الَّتي جاءت على وزنِ (فَعلًا مُفَعَّلًا)، فهو ﷺ (فَخْمًا مُفَخَّمًا) أي عظيمًا عند الله تعالى، ومُعَظَّمًا عند النّاس، بل ومُكَرَّمًا في القلوب.

وجاء في وصف هند ابن أبي هالة، أنَّ النَّبيَّ ﷺ:

- **(عَظِيمُ الْهَامَةِ، رَجِلُ الشَّعْرِ، إِنِ انْفَرَقَتْ عَقِيقَتُهُ فَرَّقَهَا..)**

وقالت أمّ معبدٍ الخُزاعيَّة، عنه ﷺ:

- **(لَمْ تعبْهُ ثُجْلَةٌ، ولم تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ، وَسِيماً قَسِيماً..)**

اتفق هندُ وأمُّ معبدٍ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان متناسب الأعضاء، وهذا من أهم معايير الجمال، فقد كان ﷺ سواءَ البطن والصَّدر، ولم يتميَّز بضخامةِ البطنِ، وهو قولِ أمِّ معبدٍ **(لم تُعبه ثُجلَةٌ)**، أمَّا رأسُه ﷺ فقد كانَ متناسِبًا مع بدَنِهِ **(لم تزرِ به صعلة)**، بل كان **(عَظيمَ الهامَةِ)** عِظَمًا متوسِّطًا لا خارجًا؛ لأنَّ في غير ذلك علامة البلادة، ويرى الزرقانيُّ أنَّ عِظَمَ الرأس "محبوب ممدوح؛ لأنَّه أعونُ على الإدراكات"[٢].

والعقيقَةَ في الأصلِ هي الشَّعْرُ الَّذِي يُولَدُ عَلَيْهِ الْمَوْلُودِ قَبْلَ حلاقتهِ، وقد يُطلَقُ علَى الشَّعْرِ اسم **(العَقِيقَة)** بَعْدَ الْحَلْقِ أَيْضًا عَلَى الْمَجَازِ.

واستخدمَت أمُّ معبدٍ **أسلوبَ التأكيد**؛ فعبَّرتْ عن حُسْنِ النبيِّ ﷺ الثابتِ الذي لا يتغيَّرَ، بقولها: **(وسيمًا قسيمًا)**، من طريق الإتباع الذي يكون فيه اللفظ الثاني بمعنى اللفظ الأول فيؤتَى به تأكيدًا؛ لأنَّ لفظه مخالفٌ للفظ الأول، وفي هذا يقول أبو علي القالي: "ويقولون قسيم وسيم؛ فالقسيم هو الجميل الحَسن، ويقال للرجل قسيم وللمرأة قسيمة.. والوسيم هو الحَسن الجميلُ"[٣].

وقد جاءت عبارات هندِ بنِ أبي هالة جُمَلًا اسميَّة **(عَظِيمُ الْهَامَةِ، رَجِلُ الشَّعْرِ)**، وفيها محذوفٌ وهو المبتدأ الذي بدأ به هندُ وصفه: (كان رسولُ الله..)، وإنَّما كان الحذفُ لدلالة القرينة الحاليَّة عليه.

ووصفتْ أمّ معبدٍ الخُزاعيَّة، رسولَ الله ﷺ قائلةً:

- **(فِي عَيْنَيهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ... فِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وَفِي لَحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ..)**

في عبارات أمِّ معبدٍ حديثٌ عن جمالِ النَّبيِّ ﷺ، في عيْنَيْهِ، وفي صوتِه، وعُنقه، ولَحيَتِه، وجاءت هذه العبارات مستخدِمَةً ظاهرةَ **التقديم والتأخير** الذي يُعَدُّ مِن المباحِثِ الأساسيَّة في البلاغةِ العربيَّة، فهو ركنٌ من أركان علم المعاني، لصِلَته الوثيقة بقصد المتكلِّم، وبحال المخاطَبِ، والمقامِ الذي قيلَ فيه الكلامُ، وهذه العناصر الثَّلاثة هي التي يسعى -عن طريقها- علمُ المعاني لوضع ضوابط تمَكِّنُ من إيصال المعنى من المتكلِّم إلى المتلقِّي مِن غير لبسٍ أو غموض.

وقد أوجَب التَّركيبُ على أمِّ معبدٍ تقديمَ الخَبرِ **(الجار والمجرور)** على المبتدأ **(النَّكرة)** في العبارات السَّابقة لحصر وقصر هذه الأوصاف على رسول الله ﷺ، ولكنْ -من منظورٍ ثانٍ- اهتمامها بما رأته مِن جمالٍ في عينيه وصوتِه وعُنُقِه ولحيته ﷺ جعلها تقدِّمُ وتُؤَخِّرُ، انطلاقًا مِن اهتمامها بالمُقَدَّم، وحِرْصًا منها على سلامَة التَّعبيرِ اللُّغويُّ، وإظهارًا لمقدرةِ اللُّغةِ العربيِّة على التوسُّع في التَّعبيرِ وأساليبه، وإيمانًا بالفروق الدَّقيقة بين عبارةٍ وأخرى.

---

[١] الرَّصفُ لِما رُويَ عنِ النَّبيِّ من الفعلِ والوصف، للعاقولي (محمد بن محمد بن عبد الله)، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٩٩٤م، ٣٢٦/٢.

[٢] شرح الزرقاني على المواهب اللَّدنيَّة بالمِنَحِ المحمَّديَّة، دار الكتب العلمية، ٢٨٣/٥.

[٣] الأمالي في لغة العرب، لأبي علي القالي، دار الكتب العلميَّة- بيروت، ٢١٣/٢.

وجاء في وصف هند ابن أبي هالة، أنَّ النَّبيَّ ﷺ:

- **(أَزَجُّ الْحَوَاجِبِ سَوَابِغَ فِي غَيْرِ قَرَنٍ..)**

وقالت أمّ معبدٍ الخُزاعيَّة، عنه ﷺ بأنَّه:

- **(أحورَ أكحلَ أزَجَّ أقرَنَ..)**

هنا يتّفقُ هندُ مع أمِّ معبدٍ على جمالِ حاجبَي النَّبيِّ ﷺ فوصفاهُ بـ(**الزَّجَجِ**) الذي يعني دقَّة الحاجبينِ وطولهما، بل وسبوغهما إلى مؤخر العين.

ويرى الباحثُ أنَّ **ثمَّة حَذفٌ** عند أمِّ معبدٍ، إذ إنها أرادتْ: (أحور العينين وأكحلهما) و(أزجّ الحاجبين وأقرنهما)؛ لأنَّ الحَوَر، والكَحَل مِن صفات العين، أمَّا الزَّججُ والقَرَنُ فَهُمَا مِن صِفاتِ الحاجب.

ومِن بلاغةِ الوصف قولهما: (**أزج**) ولم يقولا: (مزجَّج)؛ لأنَّ (أزجّ) على وزنِ (أفْعَل) وهذه البنية الصرفيَّة أكثر دلالة على الوصف، فضلًا عن أنَّ (**أزج**) من (**الزَّجج**) وهو ما كانَ خِلقَةً، أمَّا (مزجَّج) فهي مِن (التَّزجيج) وهو ما كان صنعةً وتكلُّفًا، ونستشهد لهذا الأخيرِ بقول الراعي النُّمَيري (الوافر):

وَهِزَّةِ نِسوَةٍ مِن حَيِّ صِدقٍ يُزَجِّجنَ الحَواجِبَ وَالعُيونا[1]

أي: دقَّقتِ النِّسوةُ الحواجبَ وطوَّلتها، ولم يكنِ الزَّججُ عندهنَّ طبيعةً.

ويجوز أنْ نقولَ إنَّ هندَ بنَ أبي هالةَ قد استخدم أسلوب **المبالغة** في وصف حاجبي النَّبيِّ ﷺ، وذلك لإقامَته الجمع (الحواجب) مقام المثنَّى (الحاجبين)، فكأنَّه أراد **المبالغة** في وصف امتداد الحاجبين حتى صارا كالحواجِب.

واختلف الوصفان في (**القَرَن**)، فهندُ يرى أنَّ حواجب المصطفى ﷺ كانت من غير قَرَن، أمَّا أمُّ معبدٍ فقالت: (**أقرَن**)، وقد فصَّلنا القول عن هذا الاختلاف في موضعه من البحث.

قال هندُ بنُ أبي هالةَ كان النَّبيُّ ﷺ: (مُتَوَاصِلُ الأَحْزَانِ، دَائِمُ الْفِكْرَةِ، لَيْسَت لَهُ رَاحَةٌ، لا يَتَكَلَّمُ عَنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، يَفْتَتِحُ الْكَلامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، فَصْلٌ لا فُضُولٌ فيه وَلا تَقْصِير)

نجدُ في قولِ الحسن بن عليٍّ -رضي الله عنهما- لخالِه هند: "صِفْ لِي مَنْطِقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ" **حَذْف جمْلة** وتقديرها: "وهيئة سكوتِه"؛ فكأنَّه سأل خاله هندَ بنَ أبي هالةَ قائلًا: "**صفْ لي منطق رسول الله وهيئةَ سكوته**"، والقرينة الدَّالة على هذا المحذوف لفظيَّة نجدها في جواب هندٍ: "كان ﷺ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الْفِكْرَةِ، لَيْسَت لَهُ رَاحَةٌ، طَوِيلُ السَّكْوتِ، لا يَتَكَلَّمُ عَنْ غَيْرِ حَاجَة.."، فذكر هندُ في جوابه على طلب الحسنِ أنَّ النبيَّ ﷺ كان طويلُ السكوت.. ولعلَّ هذا الحذف هو من باب الاكتفاء[2].

من بلاغة الوصف أنْ جاءت هذه العبارات الثلاثة جُمَلًا اسميَّة مبنيَّة على بعضها؛ "لأنَّ تَفَكُّرَهُ ﷺ وَاسْتِغْراقَهُ في شُهُودِ جَلَالِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ.. يَسْتَدْعِي دَوَامَ الصَّمْتِ، وَعَدَمَ الرَّاحَةِ؛ إذْ إنَّ مِنْ لَازِمِ اشْتِغَالِ الْقَلْبِ انْتِفَاؤُهَا"[3] ومِن **بابِ الذِّكرِ** قوله: (**لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ**) في الدُّنيا؛ لأنَّها مِنْ لَوَازِمِ مَا قَبْلَها من عبارات، وجاء التَّصَريحُ بها اهتِمامًا وتَنبيهًا.

وقد وفَّقَ بعضُ شُرَّاحِ السِّيرةِ والشَّمائِلِ بين قولِ هندِ بنِ أبي هالةَ: (**متَواصِلُ الأَحزَانِ**)، وكوْنُهُ ﷺ **دائم البِشْرِ، ضَحوكَ السِّنِّ، كَثيرَ التَّبسُّمِ**، وننقلُ هنا بعضَ أقوالهم في ذلك:

---

[1] ديوان الراعي النُّمَيري، شرح د. واضح الصَّمد، دار الجيل– بيروت، ١٩٩٥م، ص ٢٣٢.

[2] الاكتفاء هو: حذف بعض الكلام، والاستغناء بدلالة الموجود عليه. (الشفاء في بديع الاكتفاء للنواجي، محمد بن حسن، دار مكتبة الحياة– بيروت، ١٤٠٣هـ، ص ٢٦).

[3] جمع الوسائل في شرح الشمائل للهروي، ١٠/٢.

يقول الحضرميُّ إنَّ "شأنَ الكُمَّل إظهار البِشْر والانبساط لمن يريدون استعطافه، مع تلبّسهم بالحزن المتواصل باطنًا، فكثرة تبسّمِهِ صلّى الله عليه وسلم لا تتنافى مع كونه متواصل الأحزان"[١].

وجاءت عبارات الوصفِ هذه مُزيَّنةً بالتَّطابق بين الفعلين: (**يفتتح**) و(**يختم**)، وبين كلمتي: (**فضول**)، و(**تقصير**)، فقد كانَ كلامُ النبيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- واضحًا بيِّنًا لا زيادة فيه ولا إخلال، يفهمُهُ السَّامعُ، فلم يكن لفظُهُ بالغليظِ ولا بالحقير، وإنَّما كان متواضعًا رقيقًا محكم الضبط، متقن الأداء، عذبُ المنطقِ، متناسق الأنغام، والعرب كانت تتمادح بسَعة الفمِ، وتذمُّ صِغَره؛ لذا وصف هندُ النَّبيَّ ﷺ بأنَّه (**يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه**)، فالشِّدقُ مفردُ الأشداق وهو طرف الفمِ، وجاء الوصف بالجمعِ (**أشداقِه**)، ولم يقلْ (**شِدْقَيه**)؛ ليؤكِّد على أنَّه ﷺ كان يستخدمُ جميعَ فمِه في التحدُّثِ، ولا يكتفي بتحريكِ الشَّفتين كما هو شأنُ المتكبِّرينَ المُتَشَدِّقينَ الذين يتوسَّعُون في الكلامِ مِن غيرِ احترازٍ، أمَّا النبيُّ ﷺ فلا يتكلَّم في غير حاجَةٍ دينيَّةٍ أو دنيويَّةٍ، وكلامُه بقدر الحاجة.

واتَّفق هند في وصفه كلامَ النَّبيِّ بأنَّه: (**.. يَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، فَصْلٌ لا فُضُولٌ فيه وَلا تَقْصِير**) مع أمِّ معبدٍ التي قالت: (**فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ**)، فقد كانَ النَّبيُّ ﷺ قليلَ الألفاظِ كثيرَ المعاني، وكان يتكلم بكلامٍ فصلٍ يحفظُهُ مَن سمعَهُ؛ وذلك لسهولة ألفاظه، وقلَّتِهِ، فلم يكن يَسْرِد سَرْدًا، كما قالت السيِّدةُ عائشة -رضي الله عنها-: (**كان كلامُ النَّبي ﷺ فَصْلًا يفقهه كلُّ أحَدٍ، لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُهُ سَرْدًا**)[٢]. وفي ذلك إشارة إلى اقتصاره ﷺ على المعنى المطلوب فكلامه ﷺ كان بقدر الحاجة لا زيادة فيه ولا نقصان. وقد تشرَّب الصرصَرِيُّ بعضَ هذه المعاني الواردة في وصف هند، ووصف أمِّ معبد، وحديث السيدة عائشة، فزيَّنَ بها بعض أبياتِ نونيَّته المشهورة، فقال (بحر الكامل):

جَمَعَ الفَوائِدَ بِاخْتِصــــــارٍ مُحْكَمٍ لَفظٌ يسـيرٌ في غَزيرِ مَعاني
وَكَلامُـــــهُ الفَصـلُ المُــبينُ ونَثْرُهُ يَســمُو عُقودَ الدرِّ وَالمُرجانِ
حُـلوُ الحَديثِ إذا تَكــلَّم ناطـــــــقًا فَالحَقُّ ما فـاهَتْ بِهِ الشّفَتانِ
ما كانَ يسـْـــــــــرُدُ بَل يَعُدُّ كَلامَهُ عَدًّا لِيَعقِـــلَهُ ذَوو الأَذهَـــانِ[٣]

وقد أدركَ النَّبيُّ ﷺ مكانةَ الإشارة لِما لهما من دلالاتٍ عميقةٍ في إيضاح المعاني وترسيخها في النُّفوس، لذا كان اهتمامه ﷺ بها بالغاً، باعتبارها وسائل إيضاحٍ وتشويقٍ تعينه على توصيل المعنى؛ فالإشارة أو الحركة إذا صاحبتِ البيانَ اللفظيَّ ازداد الأمرُ رسوخاً في نفوسِ السَّامعين، وقد كانَ هندُ قريبًا من النبيِّ ﷺ؛ لذا وصف طريقة استخدامه ﷺ الإشارة معضِّدًا بها العبارة، فقال: (**إذا أشار أشـارَ بكفِّها كلِّها، وإذا تعجَّبَ قلبها، وإذا تحدَّث اتَّصل بها، يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى..**).

ثم قالت أمُّ معبدٍ واصفةً مَنطقَ النبيِّ ﷺ: (**إِذَا صَمَتَ فَعَلَيْهِ الوَقَارُ، وإذَا تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلاهُ البَهَاءُ**)، مبيِّنةً وقاره وبهاءه في حالتي الصَّمتِ والحديثِ، فجاءت هذه في عباراتها **لتطابقَ** بين لفظتي: (**صمت**) و(**تكلَّم**)، وما يزيد الوصفَين بلاغَةً أنَّ كلًّا مِن **هندٍ، وأمِّ معبدٍ**، قد استخدما أسلوب الشرط بأداةِ الشرطِ غير الجازمة (**إذا**)، وفي اختيار (إذا الشرطية) دلالةٌ على جودةِ التركيبِ وجمالِ النَّظْم؛ لأنها دخلت على أمرٍ غير مشكوكٍ فيه.

---

[١] منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، لعبد الله بن سعيد الحضرمي، دار المنهاج- جدّة، ٢٠٠٥م، ٣٨٤/١.

[٢] مسند أحمد بن حنبل، ٥٢٠/٤١.

[٣] ديوان الصرصري المسمَّى بـ(النظم المختار مِن مدائح المختار)، ص ٣٩٤.

ولمَّا أرادتْ أمُّ معبدٍ إظهار صورةِ طريقةِ كلامه ﷺ لزوجها، وظَنَّتْ في تقديرها أنَّ التعبيرَ وحده ليس بكافٍ في إيضاحِ جمالِ مَنطِقِهِ ﷺ استعانتْ بما يساعدها على ذلك فلجأتْ إلى التشبيه، عاقِدةً مقارنة بين مَنطقه ﷺ، وبين خرزاتِ النِّظمِ التي تَنحدرُ بلطفٍ؛ فقد حيَّرتها حلاوةُ ألفاظ النبيِّ ﷺ وكلماته، والمعاني الأبكار في أسلوبِه ﷺ المترسِّل الذي لا توعُّرَ فيه، فهي لمَ ترَ النبيَّ ﷺ يسرُد سَرْدًا، لذا قالتْ: **(كأنَّ مَنطِقَهُ خرزَاتُ نَظْمٍ يتَحَدَّرْنَ)** وبهذه الصورة التَّشبيهيَّة الرائعة صار المعنى قويًّا راسخًا في النفوس.

واتَّفقَ الوصْفانِ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان معتدل، ليس بالطويل الفارع **(المشَذَّب)**، ولا بالقصير المعيبِ، فقال هندُ بنُ أبي هالةَ: **(أطول من المربوع، وأقصر من المشذب)**، وقالتْ أمُّ معبدٍ: **(رِبْعَةٌ لا تَشْنَؤه عَينٌ مِن طُولٍ، ولا تقتَحمُهُ عينٌ مِن قِصَرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصنَيْنِ)**، فالمُشَذَّبُ هو البائن في الطول مع نقصان لحمه، هذه صفة مذمومة عند العرب؛ لأنّ الطّولَ في الغالِبِ دَليلُ السَّفَهِ.. فلم يكنِ النبيُّ ﷺ تعيبه عينٌ مِن طولٍ، ولا يقتحمه النَّظرُ لِقصرِه؛ لذا شبَّهته أمُّ معبدٍ بالغصن الوسط الذي بين غصنين أولها طويلٌ والآخر قصيرٌ.

وفي قول أمِّ معبدٍ: **(لَهُ رُفَقاءُ يَحفُّونَ بِهِ، إنْ قَالَ اسْتَمعُوا لِقَولِهِ، وإنْ أَمَرَ تَبَادَرُواْ لأَمْرِهِ، محفودٌ محشود، لا عابس ولا مُفَنَّد)** تقديمٌ وتأخيرٌ؛ فقد قدَّمتْ الخبر (له)، على المبتدأ (رفقاء) للاهتمام بأمر المقدَّمِ، ثمَّ جاءت آخر عبارات الوصفِ عند **أمِّ معبدٍ** بأسلوب الشرطِ، مستخدمةً **(إنْ)** التي تَدخل على المعاني المحتَملة المشكوكِ في كونها، أو المعلوم المبهم زمانه[1]، فجاء الشَّرْطُ في وصفها بـ**(إنْ قال استمعوا.. وإنْ أمر تبادروا)**. وما أشبهَ عبارة **(محفودٌ محشودٌ)** مِن: (وسيم قسيم)، من حيث البنية الصوتيَّة، غير أنَّ الثانية فيها اتباعٌ –كما ذكرنا- بخلاف الأولى؛ إذ إنَّ (محفود) تعني: مخدومٌ، فهو ﷺ، مطاعٌ، و(محشود)، تعني: قد حفَّ حوله أصحابه وأطافوا به؛ فهو مُحْتَشَدٌ.

وبصورةٍ عامَّة يمكننا أن نقارن بين الوصفين، فنقول:
تميَّز وصف هندِ بعدَّة ميزاتٍ، منها:

- التفصيل والإسهاب في الوصفِ، فقد جاء الوصف طويلًا دقيقًا واصفًا أدق التفاصيل، ويمكن أن نعزوَ ذلك لطولِ إقامة هند مع النَّبيِّ ﷺ، وكثرة التفاصيل تستوجب على الواصف استخدام الأساليب البلاغيَّة.
- ركَّز هندُ على الوصف المادي فلم تظهر المشاعر في وصفه.
- وضوح الألفاظ، والتدقيق في اختيار الكلمات، والاستقصاء في الوصف؛ ذلك لأنَّه كان مشهورًا بدقَّة الوصف.

كما تميَّز وصف أمِّ معبد بميزاتٍ، من أهمِّها:

- **التلقائيَّة وعدم التكلُّفِ في الوصفِ**، وقد جاء وصفها مفعمًا بالمشاعرِ الصَّادقةِ، وذلك لأمورٍ، منها: أنَّها امرأة، وصفتِ النَّبيَّ ﷺ -وهو رَجُلٌ- موضِّحةً لزوجها أمرَ ذلك اللبن الذي تعجَّب أبو معبدٍ من وجوده قائلةً: (مرَّ بنا رجلٌ مباركٌ)، فوصفتْ نبيَّنا الكريم ﷺ حين رأته قادمًا من بعيدٍ بقولها: **(أبهى النَّاس، وأجمَلُه مِن بَعيدٍ)**، وعندما اقترب منها ﷺ شعرتْ أنَّه مختلِفٌ فقالت: **(وَأحْلاهُ وأَحْسَنُهُ مِن قَريبٍ)**.

---

[1] المفصَّل في صنعة الإعراب: للزمخشري، تحقيق د.خالد حسّان، مكتبة الآداب– القاهرة، ط٣، ٢٠١٤م ص ٤٣٩، ويُنْظَرُ: ارتشاف الضَّرَب مِنْ لِسانِ العربِ، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. رجب عثمان، مكتبة الخانجي– القاهرة، ١٨٦٦/٤.

- **الاختصار والإيجاز في الوصف**: وذلك لأمرين، أولهما: أنَّها كانت تعيش في الصحراء، وأهل البدو يميلون إلى الإيجاز بخلاف أهل الحاضرة، ثانيهما: أنها وصفتِ النَّبيَّ ﷺ بعد مغادرته خيمتَها بوقتٍ ليس بالطويل، فلم تجد وقتًا لتنميق كلامها وتزيينه بأساليب بلاغيَّة سوى ما جاء في بعض الجُمَلِ، نحو: **(كأنَّ منطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ)** وقولها: **(غُصْنٌ بَيْنَ غُصنَيْنِ)**.
- قوة الألفاظ ومعانيها، والتلقائيَّة في الوصف، فضلًا عن الإيجاز.

الخاتمة

جمعَ اللهُ في شَخْصِ النَّبيِّ ﷺ من الكمالات ما لم يجتمع لأحد من العالمين، وقد دوَّنَ الصحابةُ أقوالَ النبيِّ ﷺ وأفعالَه، وشمائلَه، وأحوالَه، وسجَّلواْ أوصافه كاملة لتكتمل الصورةَ في معناها ومبناها جامعةً كلَّ لمحةٍ لسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ من ميلاده إلى انتقالِهِ للرَّفيقِ الأعلَى. وأشهر أولئك الذين وصفوا النبيَّ ﷺ: هندُ بنُ أبي هالةَ ربيبُ النبيِّ ﷺ، وأمُّ معبدٍ الخزاعيَّةُ عندما مرَّ النبيُّ ﷺ بخيمتها وهو في طريقه مهاجراً إلى المدينةِ المنورة، ولعلَّنا نجدُ في هذه الأوصاف دلالَةٌ على جمالِ النبيِّ ﷺ خَلقَاً وخُلُقاً، ووسامتهِ، وتناسُب أعضائه، ثم تحدَّثت بعد ذلك عن الوقار الذي كساهُ، والبهاء الذي علاهُ في حالتي الصمت والحديث، فقد كان ﷺ يُخرج الكلمات متمهِّلاً حتَّى إنَّه ليسْهُلُ على السامع عدُّ الكلماتِ التي ينطقُ بها، وهذا يدلُّ على بلاغته وفصاحته التي تمكَّن من ناصيتها فجاءت عباراته متناسقة ومتسابقة لأداء المعنى.

كما أنَّ هذه الأوصافُ قد أظهَرتْ نقاءَ قلبِ النبيِّ ﷺ الطَّاهر الذي يشعُّ على وجهه بالضياء؛ فكان كما قال هندُ بنُ أبي هالةَ: **(فَخْمًا مُفَخَّمًا يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ)**، وكما وصفته أمُّ معبد بأنَّه: **(ظَاهِرَ الوَضَاءَةِ، حَسَنَ الخلقِ، أَبْلَجَ الوَجْهِ)**، ونلمحُ في أوصافه ﷺ هيبةً تفرضُ نفسها على الناس، مع كمال المحبَّة له وتطلُّعِ النفسِ المُحِبَّةِ وشوقها إليه. فضلًا عن أنَّ هذه الأوصاف أعلنتْ عن قوةِ النَّبيِّ ﷺ وجماله وكماله.

نتائج الدراسة:

وبعد التأمُّل في هذه الأوصافِ البليغة نخلص إلى نتائج، أهمها:

- وصفَ **هندُ بنُ أبي هالةَ** رسولَ الله ﷺ وهو يعرِفُ مَنْ يصِف، فعباراتُ وَصفِه جميلةٌ بديعَةٌ، غيرَ أنَّ **أمَّ معبدٍ** عندما وصفتْ رسولَ الله ﷺ لم تكن معتنقةً أيَّ معتقد ديني، ولم تكنْ تتعرَّفُ على رسول الله ﷺ، حتَّى يُقالَ: إنَّ وَصْفَها له جاء مِنْ بابِ الغُلُوِ أو الإطراءِ، يؤيِّدُ قولنا هذا وصفها الذي بدأ بـ(رأيتُ رجلًا ..).
- موافقة (**أم معبدٍ**) لـ(**هند بنِ أبي هالةَ**)، وبعضِ الصحابة الذين وصفوا رسول الله ﷺ يدلُّ على أنَّ هذه الأوصاف لم يكنْ فيها غلوٌّ في ذكر محاسنه ﷺ.
- إنَّ وصفَ **أمِّ معبدٍ** لرسول الله ﷺ كان في أول لقاء له وهو في حالةِ سفرٍ، وكان في الثالث والخمسين من عمره، ولم يختلف وصفها عن وصف **هند بن أبي هالةَ** الذي عرف النَّبيَّ ﷺ شاباً يافعاً حال حِلِّه مقيماً بين أهله مطمئناً؛ وفي هذا دليلٌ واضحٌ على استواء أحواله ﷺ في الحلِّ والتِّرحال، والشَّباب والشيخوخة، فهو نورٌ على نورٍ.
- إنَّ ممَّا جعل وصف أمِّ معبد من أبلغ الأوصاف على الرَّغم من أنَّها لم تلتقِ النبيَّ ﷺ قبل هذا أنَّ المرأةَ عمومًا تَصِفُ الرَّجلَ بعاطفتها وهواها فتُبْدِع، فضلاً عن مقاييس الرجال والنِّساء التي قد تتَّحد وقد تختلف في اعتبار الجمال والكمال في الإنسان.
- أمُّ معبدٍ صحابيَّةٌ جليلةٌ، ولكنها لم تكن من النساء ذوات الشهرة في الجاهلية، وقد حلت عليها البركة بمرور النبيِّ ﷺ ومن معه على خيمتها.
- أثَّرت حياة البداوة وحياة الحاضرة على عبارات كلِّ وصفٍ، إذ إنَّ الإنسانَ ابنُ بيئته، فجاء وصف هند طويلًا مفصَّلًا، بخلاف أمِّ معبدٍ التي جاء وصفها مجملًا بلغةٍ عفويَّةٍ من غير تكلُّفٍ.
- جاءت الجُمَلُ في كلِّ وصفٍ قصيرة معبِّرة عن المعنى بدقَّة، غير أنَّ الأساليب البلاغيَّة كانت عند هند بن أبي هالة أكثر منه عند أمِّ معبد.

المراجع والمصادر

- أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩.

- أحمد بن فارس:
  - الإتباع والمزاوجة، مكتبة الخانجي- القاهرة.
  - مقاييس اللُّغة، تحقيق عبد السلام هرون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- الأصبهاني (أبو الشيخ): أخلاق النبي وآدابه، دار المسلم للنشر، ١٩٩٨م.
- الأصبهاني (أبو نعيم): دلائل النبوَّة، دار النفائس- بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم): أسد الغابة في تمييز الصحابة، دار الفكر- بيروت، ١٩٨٩م.
- البغوي (الحسين بن مسعود): شرح السُّنَّة، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد الشاويش، المكتب الإسلامي- دمشق ١٩٨٣م.
- البيهقي: ودلائل النبوّة، تحقيق د.عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.
- الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى الضرير): أوصاف النَّبي، تحقيق سميح عبَّاس، دار الجيل، بيروت.
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هرون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ١٩٨٨م،
- الجرجاني (علي بن محمد): التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤٠٥هـ.
- الحضرمي (عبد الله بن سعيد): منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، دار المنهاج- جدّة.
- أبو حيان الأندلسي: ارتشاف الضَّرَب مِنْ لِسانِ العربِ، تحقيق: د. رجب عثمان، مكتبة الخانجي- القاهرة.
- الزرقاني (أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي): شرح الزرقاني على المواهب اللَّدنِيَّة بالمِنَحِ المحمَّديَّة، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.
- الزمخشري (جار الله محمود بن عمر): المفصَّل في صنعة الإعراب، تحقيق د.خالد حسّان، مكتبة الآداب– القاهرة، ط٣، ٢٠١٤م.
- ابن سعد (أبو عبد الله محمد): الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ١٩٦٨م.
- السعدي (عبد الرَّحمن بن ناصر): تيسير الكريم الرَّحمن (تفسير السَّعدي)، تحقيق عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.
- ابن سيدة (أبو الحسن علي بن إسماعيل):
  - المحكم لابن سيدة، دار الكتب العلميَّة- بيروت.
  - المخصص لابن سيدة، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤١٧هـ،
- السيوطي (جلال الدين): الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٨٥م.
- الشامي (محمد بن يوسف): سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد، دار الكتب العلميَّة- بيروت، ١٩٩٣م.

- صلاح الدين (محمد بن شاكر): فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر- بيروت، ١٩٧٤م.
- الطبراني (أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب): المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتب العلوم والحكم- الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ /١٩٨٣م.
- العاقولي (محمد بن محمد بن عبد الله): الرَّصفُ لِما رُويَ عنِ النَّبيِّ من الفعلِ والوصف، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محم البجاوي، دار الجيل- بيروت، ١٩٩٢م.
- العراقي (زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين): ألفية السيرة النبويَّة، دار المنهاج- بيروت، ١٤٢٦هـ.
- العسقلاني (أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادلأحمد، وعلي معوّض، دار الكتب العلميَّة- بيروت، ١٤١٥هـ.
- عياض، القاضي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفيحاء- عمان، ١٤٠٧هـ.
- الفراهيدي (الخليل بن أحمد): كتاب العين، تحقيق د/مهدي المخزومي، ود/إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- القالي (أبو علي إسماعيل بن الحسن): الأمالي في لغة العرب، دار الكتب العلميَّة- بيروت، ١٩٧٨م.
- القسطلاني (أبو بكر أحمد بن محمد): المواهب اللدنيَّة بالمنح المحمديَّة، المكتبة التوقيفيَّة- مصر.
- القَلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الفكر– دمشق، ١٩٨٧م.
- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر):
  - البداية والنهاية، مكتبة المعارف- بيروت.
  - السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، ١٩٧٦م.
- كحالة (عمر رضا): معجم المؤلفين، مكتبة المثنى- بيروت.
- مرتضى الزبيدي (محمد بن محمد بن عبد الرزاق): تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر- بيروت.
- النواجي (محمد بن حسن): الشفاء في بديع الاكتفاء، دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٤٠٣هـ.
- النَّووي (محي الدين يحيى بن شرف): تهذيب الأسماء واللُّغات، دار الكتب العلمية- بيروت.
- النّويري (شهاب الدين أحمد): نهاية الأرَب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قميحة وجماعة، دار الكتب العلمية- بيروت، ٢٠٠٤م.
- الهروي (أبو الحسن نور الدين الملا):
  - جمع الوسائل في شرح الشمائل، المطبعة المشرفية- مصر.
  - شرح الشفا، دار الكتب العلميَّة- بيروت، ١٤٢١هـ.
- أبو هلال العسكري: الفروق اللغويَّة، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة- القاهرة.

- الهيتمي السعدي: أشرف الوسائل إلى شرح الشمائل، تحقيق أحمد بن فريد، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٩٨م.
- الهيثمي (علي بن أبي بكر): مجمع الزوائد، دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤٠٧هـ.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، ١٩٩٥م

الدواوين الشعريَّة:

- ديوان الراعي النُّمَيري، شرح د. واضح الصَّمد، دار الجيل- بيروت، ١٩٩٥م.
- ديوان الشيخ المجذوب، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، د.ت.
- ديوان الصرصري المسمَّى بـ(النظم المختار مِن مدائح المختار)، تحقيق د/ محمد محمد داود، ٢٠٠٤م.
- ديوان ابن الفارض، قدَّمه السيد حسن، مكتبة الحسين الإسلاميَّة- القاهرة.
- ديوان المتنبي، دار بيروت، للطباعة والنشر- بيروت، ١٩٨٣م.

Description of the Prophet (peace and prayer be upon him) A Comparative Rhetorical study

Dr. Hamad al-Nile Osman Abdel Sayed Abdel Qader
Associate Professor of Rhetoric and Criticism, Dep. of Arabic Language, Fac. of Science and Arts, al-Ula, Taibah University

Abstract: This study is entitled: Description of the Prophet (peace and prayer be upon him): A Comparative Rhetorical study . the description of Hind bin Abi Hala, and the description of the mother of the temple Khuzaia, seeking to highlight the aesthetics of synthesis and eloquence in these two descriptions, and how each of them was able to use rhetorical methods; to achieve each description of its intended, These two descriptions - the description of Hind ibn Abi Hala, and the description of the mother of a temple - to explain the vocabulary of each description separately, and analysis of its structures. He described the description of the mother of a temple wide fame, and found great tribute, and the attention of scientists old and new, as well as the description of Hind bin Abi Hala when asked his nephew Hassan bin Ali bin abi Talib.

Hind described every glimpse in the life of the Prophet. The mother of the temple described the Prophet ρ to her husband and did not know that it describes the Arab Prophet, which was directed by his people, and came to describe it honestly and inexpensively. This study adopts the descriptive method, where we try to extract the material and then classified according to the criteria of rhetorical news based on the scientific method, and then studied in the light of rhetorical conditions; to get out of monitoring this article results to help to show the aesthetics of stylistic performance in the sentences and phrases described in each Based on the most important sources and references related to the subject of the study.

The nature of the research is necessitated the division of its scientific material into three topics preceded by an introduction and a prelude followed by a conclusion and then proved the most important sources and references. The introduction included the objectives of the study, the hypotheses, the questions that the study seeks to answer, and the method adopted. And dealt with the introduction: a brief translation of each of: Hind bin Abi Hala, and the mother of the temple Khuzaie, and then talk about the description and its linguistic and idiomatic significance, and its place in literary studies, and the first section came to describe the description of Hind bin Abi Hala, with mentioning the appropriate description, explanation, and statement eloquence. The second section includes the description of the mother of the temple Khuzaia, with mentioning the appropriate description, explanation, and statement eloquence. The applied study - rhetorical comparison between the two descriptions - came in the third section. The conclusion mentioned the most important findings of the research. I appended the research to an index of sources and references.
Keywords: Performance, Rhetoric; Sentence; Phrase; Prophet; Description